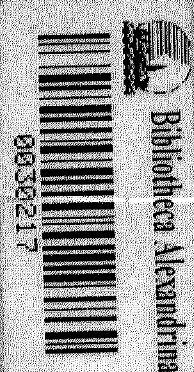
دكتور عبد الغني عبود

أنبياء الله والحياة المعاصرة

الإسلام وتحديات العصر

الكتاب السادس



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الاسلام وتحديات العصر

الكتاب السادس





كلية التربية جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الطبعة الأولى

سبتمبر ١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنا أوحينا إليك ، كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً . لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، قد ضلوا ضلالا بعيداً » (قرآن كريم : النساء — ٤ : ١٦٣ — ١٦٧)

* * *

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس ، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ، من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد » (البقرة — ٢ : ٢٥٣) .

* * *

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتي إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله ، قضي بالحق ، وخسر هنالك المبطلون » (غافر — ٤٠ : ٧٨) .

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

ليست هذه السلسلة سلسلة دينية بالمعنى التقليدى ، كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وإن كان الدين الإسلامى يعتبر محورها الأساسى .

ولقد كان الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، بعيداً كل البعد عن الدين ، قريباً كل القرب من العلم الخالص ... فى مجال التربية، الذى تخصصت فيه، وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقوم به من أبحاث .

وصحيح أن الدين ليس حكراً على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة والتربية ، ولكن المتخصصين فيه — بالضرورة — أقدر على العطاء ، وغير المتخصصين فيه لابد أن يكون عطاؤهم أقل ، وبجهد أكبر .

ويعود الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، إلى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الإسلامية) ، يحصل بها على درجة الماجستير فى التربية ، وهالنى رد أحد الزملاء — الأساتذة — عليه — بأنه لا يوجد — للأسف — تربية إسلامية .

ولم يكن بين يدى الرد لبليتها على الزميل ، ولا قدرة — بالتالى — على مناصرة الطالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليل .

ورجعت إلى ما كتب عن (التربية الإسلامية) ، فى الكتب والمجلات العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصلا بالتربية الإسلامية، سوى .. العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته كان لمفكرين إسلاميين .. كبار .

وكان على أن أعتمد على الله وعلى نفسى ، فى التصدى لهذه المغالطة العلمية ، التى يقول بها بعض رجال التربية عن جهل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن قصور .

وجمعت المادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هذه المادة ، وكتبت — بالفعل — على أساسها — كتاباً متكاملا عن (الأيديولوجيا والتربية فى الإسلام) ، ولم يكن ينقصه سوى أن يدفع إلى المطبعة ، ليرى — بعدها — النور ، ويبث — بعدها — نور الحقيقة فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لها .

ثم عدت إلى نفسى ، وقلت لها : ولكن المسئولية أمام الله أكبر من هذا الجهد الذى بذلته ، فقد كان لابد — فى نظرى — من مزيد من البحث .

وقلت لنفسى أيضاً : ولكن هذا الجهد الذى بذل ، كبير ، وهو جدير بأن يرى النور .

واستقرت نفسى على أن ألخص هذا الذى كتبته ، فى ستين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ .

ثم استقرت — بعد ذلك — على نشر هذا المقال ، مع مقالين آخرين ، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الإسلامية) ، فى كتاب يصدر قريباً ، تحت عنوان (مقولات فى التربية الإسلامية)(١) ، نظراً لأن كل

---

(١) تم طبع الكتاب الآن بالفعل ، ونشرته دار الفكر العربى ، فى منتصف سنة ١٩٧٧ ، مع تغيير محدود فى العنوان ، بحيث صار (فى التربية الاسلامية) فقط ، ومع تغيير محدود أيضا فى المحتويات ، فقد ضمت الى المقالات — أو المقولات — السابقة ، مجموعة مقالات ، سابقة ولاحقة ، بحيث تكون المقالات — مجتمعة — دراسة متكاملة ، تبدأ بمدخلين ، عقائدى وأيديولوجى ، وتنتقل الى التربية الاسلامية ، كفلسفة نظرية ، ثم تختم بالواقع الراهن للتربية فى البلاد الاسلامية اليوم ، مع تحليل هذا الواقع ، والقاء نظرة مستقبلية عليه .

مقال من المقالات الثلاثة ، قد صدر — حيثما صدر — مليئاً بالأخطاء المطبعية ، التي أفسدت المعنى الذى كنت أريده فى بعض المواقف إفساداً .

واستقرت نفسى — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومى عن الإسلام ، وعن (الشخصية القومية الإسلامية) ، فهى المنطلق الحقيقى للحديث — الصادق — عن (التربية الإسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظام التربية فى أى مجتمع ، فى ضوء (الشخصية القومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ، يكون نظام التربية — فى نظرنا — نحن رجال التربية - معلقاً فى الهواء .

وفى ضوء تلك (الشخصية القومية) ، درست — وتدرس — التربية فى البلاد الرأسمالية عموماً ، وفى كل بلد منها ، كما تدرس التربية فى البلاد الشيوعية عموماً ، وفى كل بلد منها .

وفى ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ، والتربية اليهودية .

أما التربية الإسلامية . . فلم تجد —حتى الآن — فى حدود علمى — من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول ، بأنه لا توجد تربية إسلامية ، لأن الشخصية الإسلامية اليوم ، شخصية ، لا هى إلى الإسلام تنتمى ، ولا هى عن الإسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية ، شراً على الإسلام ، وخطراً عليه ، أكبر من الشر والخطر الذى يستطيعه أعداء الإسلام أنفسهم .

ومن ثم فالشخصية القومية الإسلامية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هى المدخل الصحيح لفهم التربية الإسلامية ، وإنما المدخل الصحيح لها ، هو تلك الشخصية القومية الإسلامية ، فى عصور الإسلام الأولى .

ولو عاد المسلمون إلى فهم الإسلام من جديد، كما يجب أن يفهم، لعادوا إلى أنفسهم، وعادت إليهم قوتهم وعزتهم.. وحضارتهم، خاصة وأن الدراسة التي قمت بها، أكدت لي أن الإسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر)، وأن المسلمين — بالإسلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات، وأنهم — بدونه — عاجزون.

ومن ثم يكون الهدف من السلسلة.. تربوياً خالصاً.

ولكنه هدف.. ديني أيضاً.

فالمسلمون اليوم، بفعل عوامل متعددة، لا يعرف الكثيرون منهم عن الإسلام الكثير، وهم يعرفون عنه ما يعرفه غيرهم لهم، لا ما يجب أن يعرفوه بأنفسهم، من مصادره الصحيحة: الكتاب والسنة.

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة.. ذات البريق — الأخاذ — الكثير والكثير.. لأن غيرهم أراد ذلك لهم.. بفعل عوامل متعددة كذلك.

والوظيفة الرئيسية لهذه السلسلة هي: أن تضع الإسلام — بجوانبه المتعددة — وجهاً لوجه — أمام النظم والفلسفات المعاصرة.. لنرى: أيها أقدر على مواجهة تحديات العصر.

وعندما يكتشف المسلم، أن إسلامه هو القادر على مواجهة تحديات العصر، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة، إن هي ألوان من العلاج مؤقتة... مفلسة، فإنه — لابد — سيعود إلى نفسه، ويصالح دينه، ويقرأ عنه، ويقف على ما فيه.. وقوفه على ما في الفلسفات المستوردة، ذات البريق الأخاذ. ا لخادع.

وعند هذا الحد تقف رسالة السلسلة.

ومن هنا قلت وأصررت ، على أنها ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليدى .

ومن أراد الدين بالمعنى التقليدى ، فكتبه معروفة ، وكتابه معروفون .

ولكن المسلمين الذين أكتب هذه السلسلة لهم ، ليسوا مستعدين — منذ البداية — لأن يضيعوا وقتاً ، فى قراءة تلك الكتب الدينية ، وفى القراءة لهؤلاء الكتاب المعروفين ، لأن الإسلام - كما فهموه - لا يصح أن يضيعوا فيه وقتاً ، يضيعون أكثر منه ، فى المذاهب ذات البريق .. الخداع .

وبعد اتضاح معــــالم (الشخصية القومية) الإسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القومية) الأخرى ، التى نراها فى ظل الأيديولوجيات المعاصرة ، من زوايا عديدة .. وذلك خلال هذه السلسلة ، سوف أعود من حيث بدأت ، فألخص ما وصلت إليه ، وأتخذ منه منطلقاً للحديث عن (التربية الإسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبذل فى إعداد هذه السلسلة كبير ، والجهد الذى يجب أن يبذل — بعدها — فى الحديث عن (التربية الإسلامية) كبير .. ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراسة الخاصة بالتربية الإسلامية — بعدها — فى نظرى — أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهون الصعاب ، وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ .

— مايو ١٩٧٦ م .

وهذا الكتاب .. السادس

مع هذا الكتاب السادس من هذه السلسلة ، تبدأ (وحدة) جديدة من الوحدات ، التى تتكون منها هذه السلسلة .

كانت الوحدة الأولى ، تدور حول (الإنسان) ، وحول هذا الإنسان ، دارت تلك الوحدة ، من جوانب مختلفة ، فتناولت العقيدة ، والله والكون ، والإنسان ، واليوم الآخر .

أى أن الوحدة الأولى ، ربطت الإنسان — محورها — بكل ما يرتبط به ، فى داخله ، ومن حوله .

ويبدو أن موضوع الوحدة الثانية ، سيكون هو (المجتمع) ، وحول هذا المجتمع ، ستدور (خماسية) هذه الوحدة .

وموضوع الكتاب الأول من هذه الوحدة ، والسادس من السلسلة ، هو (أنبياء الله والحياة المعاصرة) .

وأشهد لقد كتب فى موضوع الأنبياء مفكرون كثيرون ، قدماء ومحدثون ، وكانت كتاباتهم فى معظمها كتابات لها قيمتها ، ومعظمها يستمد هذه القيمة ، من موضوعها ذاته ، وبعضها يستمدها من الجهد الذى بذل فيها .

وتعتمد بعض هذه الكتابات ، على ما ورد فى القرآن الكريم ، خاصاً بهم ، كما تعتمد بعضها على كتب التفسير والسير (أو التراجم) . ويعتمد بعضها — من ناحية أخرى — على مصادر إسلامية ، ويعتمد بعضها الآخر على الكتاب المقدس .

ومعظم هذه الكتابات تتدرج مع السلسلة — سلسلة النبوات والأنبياء — تاريخياً ، فتأتى بسيدنا آدم ، وتتبعه بسيدنا نوح ، ثم سيدنا ابراهيم . .

وهكذا ، ملقية الضوء على (الجو العام) ، الذى ظهر فيه كل نبى ، وكيفية استقباله من قومه ، ثم تصل إلى نهاية القصة : انتصاره ، واندحار خصومه ، بأية صورة من الصور .

والموضوع نفسه شيق ، وله صداه فى كل قلب ، لأنه موضوع يمس جوهر الإنسانية ، الغارقة فى الظلام ، الباحثة عن النور ، وعمن يقودها إلى هذا النور ، ليخرجها من ذلك الظلام .

ولكنى رأيت أن أخرج على المعالجة التقليدية للقضية برمتها .

وأشهد أننى وضعت لمعالجة القضية أكثر من مخطط ، ثم أعدت بلورة كل منها ، بحيث يحقق — فى النهاية — الهدف، الذى قصدت إليه من هذه السلسلة ، وفى الوقت ذاته يقدم معالجة جديدة للقضية ، لعلها تكون فاتحة لمعالجات أخرى على الطريق ، من زوايا أخرى ، تمس قلب الإنسان المعاصر ، من وتر آخر ، غير الوتر الذى اعتادت أن تمسه .

ومن ثم ، قد يجد فيه القارئ خروجاً على المألوف ، وهو خروج أردته ، ولم أسق إليه .

كما قد يجد فيه القارئ تركيزاً على بعض الأنبياء فى أكثر من مناسبة ، فى الوقت الذى لم يذكر فيه بعضهم الآخر على الإطلاق ، وهو تركيز وإغفال ، أردته ، ولم أسق إليه .

وعن قصد أيضاً ، ربطت بين الأنبياء جميعاً ، على ما بينهم من اختلاف ، فى المزاج النفسى ، وفى ظروف الزمان والمكان ، كما ربطت بينهم وبين الإسلام ، وربطت بينهم جميعاً من جانب ، وبين الحياة المعاصرة من جانب آخر . فهذه — فى نظرى — هى سر اهتمام الإسلام بهؤلاء الأنبياء والرسل ، وهى القيمة الحقيقية لهؤلاء الأنبياء ... فى حياتنا المعاصرة .

فهم ليسوا تاريخاً ، يعاد إليه ، لأى سبب من الأسباب ، وإنما هم حياة خصبة ، يجب أن تتمثل فى ضمير كل إنسان . . ينشد الكمال .

والإنسان المعاصر ، أكثر حاجة إلى هؤلاء الأنبياء ، من أى إنسان سبقه ، بعد أن ضل طريقه ، وخطف بصره بريق المدنية الراهنة . . حتى صار لا يرى . . وصار — بعدم قدرته على الرؤية — يتخبط ، ويشقى ، رغم أن وسائل سعادته — من حوله — كثيرة .

وحول هذا الهدف ، يدور هـذا الكتاب السادس ، كما دار حوله — بصورة أو بأخرى — إخوته الخمسة ، السابقون عليه .

ومن أجل هـذا الهدف ، لم يكن هـذا الكتاب السادس ، يدور حول الأنبياء ، بالطريقة التقليدية ، وإنما كان يدور حولهم ، بطريقة تحقق هذا الهدف .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى نقل ما أحسست به ، وما أردت نقله ، ليحقق الهدف .

ومن أراد الحديث التقليدى عن الأنبياء ، فالكتب التى تتصل بهـذا الموضوع كثيرة ، وهى ذات ألوان عدة ، ومذاهب شتى ، فى حديثها ، وكل لون ومذهب منها ، له فوائده ومزاياه .

وحسب هذا الكتاب — حينئذ — أنه نبه الأذهان إلى أهمية الموضوع ، وإلى أهمية النظرة الجديدة إليه .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى اختيار المخطط المناسب للقضية ، والمحقق للهدف ، وأن يجعل الله سبحانه هذا العمل خالصاً عنده ، فعليه وحده ـ سبحانه ـ توكلت ، وإليه قصدت ، ومنه ـ وحده ـ أرجو حسن الجزاء ؟

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : رمضان ١٣٩٨ هـ .
أغسطس ١٩٧٨ م .

الفصل الأول

مواهب وملكات

تقـــديم :

من المغالطات الكبرى ، التى تنطلق فى عالم اليوم ، انطلاق المدافع والقنابل ، لتدمر كل جميل فى هذه الحياة ، إرضاء لحقد أسود ، خيم على القلوب ... تلك المغالطة ، المتصلة بالتساوى بين الناس . وهى مغالطة تنطلق فى الشرق وفى الغرب على السواء ، لا تحقيقاً لذلك المبدأ الإنسانى السامى ، الذى نادت به رسالات السماء ، عبر عصور التاريخ المختلفة ، والذى يرى (الناس جميعاً سواسية ، كأسنان المشط) ، بل خداعاً للسذج والبلهاء ، حتى تتم السيطرة عليهم ، ليذوقوا — بعد ذلك — أقسى ألوان التمييز العنصرى .

ولو كان الناس متساوين فعلا ، لقلنا : إن هذه المغالطة حق يراد به باطل ، ولكن الناس — بطبيعتهم — غير متساوين ، ولو تساوى الناس ، لتحول الإنسان إلى حيوان ، ولتحول المجتمع الإنسانى ، من مجتمع إنسانى ، يرفعه ذلك الاختلاف القائم بين أبنائه ، والتنوع بينهم فى كل شىء . . . إلى غابة كبيرة ، يتساوى كل سكانها فى التنافس فيما بينهم فى الإيقاع بالضعيف ، والعمل على اقتناصه ، حتى يتلذذ هو ويسعد .

ذلك أن الناس — بحكم تكوينهم — مواهب وملكات ، مختلفة فيما بينها فى كل شىء ، كما يقول بذلك العلم الحديث ، وكما سبق وقالت به ديانات السماء .

الفروق الفردية :

دار الكتاب الرابع من هذه السلسلة ، حول (الإنسان فى الإسلام ، والإنسان المعاصر) ، ودار حول ما يقول به العلم الحديث ، وما يقول به الإسلام ، عن هذا الإنسان ، ورأينا أنهما يتفقان على حقيقة جوهرية أساسية ، هى « تفرد الإنسان »(١) . ومعنى (تفرد الإنسان) ، أن لكل إنسان شخصيته ، التى تدل عليه ، والتى لا يمكن أن تتكرر بالنسبة لإنسان آخر ، فهى كالبصمة ، فى دلالتها على صاحبها ، دون أدنى شك .

ويصطلح العلماء على التعبير عن (تفرد الإنسان) هذا ، (بالفروق الفردية) بين الناس ، وهم يعزون هذه الفروق الفردية ، إلى مجموعة من العوامل ، المعقدة ، المتداخلة المتشابكة ، وإن كانوا يضعونها تحت عاملين كبيرين ، هما : « الوراثة والبيئة »(٢) ، حيث « تنحصر المشكلة ، فى تحديد القدر النسبى ، الذى تساهم به العوامل الوراثية ، والعوامل البيئية ، فى تطور الفرد »(٣) .

يضاف إلى ذلك ، أن كل عامل من هذين العاملين الكبيرين ، ليس بسيطاً ، وإنما هو معقد غاية التعقيد ، فليست العوامل الوراثية بالعوامل

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الإنسان فى الإسلام ، والإنسان المعاصر — الكتاب الرابع من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ٣٣ ومابعدها .

(2) DAVIS, ROBERT A. : Psychology of Learning; Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New – York, 1935, p. 444.

(٣) آن أنستازى : « طبيعة الفروق الفردية » — ترجمة الدكتور مختار حمزة — الفصل الرابع عشر من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية — التأليف بإشراف . ج . ب . جليفورد الترجمة بإشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الثانى — الميادين التطبيقية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٦ ، ص ٥٢٥ .

البسيطة ، التى يمكن تحديدها ، والتحكم فيها ، وليست العوامل البيئية ، بالعوامل البسيطة ، او التى يمكن تحديدها ، والتحكم فيها أيضاً .

ويقصد بالعوامل الوراثية ، ما يولد الإنسان مزوداً به من صفات تكوينية أو بيولوجية ، يكون قد ورثها عادة عن أبويه ، عن طريق اتحاد أحد الحيوانات المنوية المذكرة ، ببويضة الأنثى ، حيث تتكون من هذا الاتحاد ،(الخلية الحية) ، التى « تنقسم ، وتواصل الانقسام ، حتى يتكون الجسم البشرى» حيث «تحتوى الصبغيات على الوحدات الأساسية للوراثة ، وهى المورثات (الجينات) » ،وحيث نجد من هذه الصبغيات ،« ٢٤ فى نواة الحيوان المنوى ، و٢٤ فى البويضة »(١) .

و« نتيجة لهاتين اللعبتين» ،بين الحيوان المنوى والبويضة ، على حد تعبير إحدى الدراسات ، «ترث ما ترث » من صفات تكوينية ، أو بيولوجية ، « وهذا هو السر فى تباين الأفراد ، فلو أن أبا أنجب عشرين من البنين ، من زوجة واحدة ، لكان الأرجح أن يختلف الإخوة العشرون ، بعضهم عن بعض ، اختلافاً كبيراً ، مع أنهم يستقون من معين وراثى واحد »(٢).

وإلى هذه العوامل الوراثية ، يعزى تكوين الإنسان بيولوجياً ، من حيث « أعضاء الحس والأعصاب والغدد والعضلات »(٣) ، حيث نرى

---

(١) ويلارد أولسون : تطور نمو الأطفال — ترجمة الدكتور إبراهيم حافظ وآخرين — مراجعة وتقديم الدكتور عبد العزيز القوصى — عالم الكتب — ١٩٦٢ ، ص ٧٧ .

(٢) الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد:الوراثة — (رقم ٧٩) من (المكتبة الثقافية)— دار القلم بالقاهرة — ١٥ فبراير ١٩٦٣ ، ص ٧٧ .

(٣) . ج . ل . فريمان :« علم النفس الفسيولوجى» — ترجمة الدكتور صبرى جرجس — الفصل الثانى عشر من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية — التأليف بإشراف ج.ب. جيلفورد — والترجمة بإشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الأول — الميادين النظرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥ ، ص ٤٣٥ .

« الكيان الفيزيقى (أو البيولوجى) للإنسان ، هو الأساس الذى تقوم عليه شخصيته ، وهو أساس نمو هذه الشخصية ، فى كافة النواحى ، طوال حياتها »(١) .

وقد كان هذا الاهتمام بالعوامل الوراثية ، وبالدور الذى تلعبه فى حياة الإنسان ، وفى تكوين شخصيته ، أساسا من الأسس القوية ، التى قامت عليها دعاوى (التفرقة العنصرية) ، فى القـــديم والحديث على السواء ، ودعاوى تميز شعب على شعب ، أو جماعة على جماعة ، لأسباب (عرقية) ، أو (عنصرية) .

غير أن العلم الحديث ، يثبت أن (البيئة) لا تقل تأثيراً فى تكوين الشخصية ، عن (الوراثة) ، حيث يؤثر « ضغط الوسط الخارجى » ، « فى التراكيب الوراثية »(٢) . كما يثبت العلم الحديث ، أن هذه البيئة ليست تكوينا بسيطا ، يمكن التحكم فيه ، أو تحديده ، إذ أنها مجموعة من (العوامل) المعقدة ، التى لا تقل تعقيداً ، عن العوامل الوراثية ، لأنها « بمثابة جميع (المؤثرات) التى يتلقاها الفرد ، منذ بدء حياته الرحمية ، حتى الممات »(٣).

والإنسان ، الذى يبدو أمامنا بسيطا غاية البساطة ، نتيجة ذلك (التوافق) المحكم ، فيما يأتى به من حركات ، إنما هو معقد غاية التعقيد فى داخله ، ويكفى — لنعلم مدى تعقيده الداخلى — أن نعلم أن أبسط الحركات التى يأتى بها ، إنما تتم نتيجة ملايين الأعمال المعقدة ، التى تتم داخل جسده ، والتى يقوم جهازه العصبى ، المتغلغل فى جميع أنحاء جسده ، والذى يعتبر « أدق آلة فى

---

(1) CURTIS, JACK H. : Social Psychology; Mc Graw - Hill Book Company, Inc., New - York, 1960, p. 157.

(٢) جان بياجيه : ميلاد الذكاء عند الطفل — ترجمة الدكتور محمود قاسم — مراجعة دكتور محمد محمد القصاص — مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٤٥٣ .

(٣) آن أنستازى (مرجع سابق) ، ص ٥٢٩ .

هذا العالم الذى نعيش فيه ، كما أنه أكثر هذه الآلات تعقيداً »(١) — بالدور الأساسى فى إحداث ذلك التوافق الظاهرى ، فى حياة الإنسان .

وبفضل هذا الجهاز العصبى ، وما يحدثه فى حياتنا من توافق ، يتم إحساسنا « بوجودنا ، وبمدى اختلافنا عن الآخرين » (٢) .

و« يتكون الجهاز العصبى مما يقرب من عشرة بليون خلية عصبية » (٣)، تتوزع فى جهازين كبيرين ، أولهما هو الجهاز الرئيسى ، أو الشوكى ، أو المخى ، وهو الجهاز الواعى فى الإنسان ، والثانى هو الجهاز السمبثاوى ، وهو جهاز ذاتى الحركة ، لا شعورى، يعتمد على الجهاز الأول . والجهازان معاً يضفيان « على تعقيد جسمنا ، البساطة اللازمة لنشاطه فى العالم الخارجى » (٤) .

ويقول علم النفس ، إن الجهاز المخى (أو المخ) ،وهو الجهاز الواعى فى الإنسان ، والأساسى فيه أيضاً ، يتكون من جزءين ، أولها شعورى ، هو الذى يتحكم فى الجهاز العصبى للإنسان ، والذى من خلاله يفكر الإنسان ، ويختار بين البدائل ، والثانى لا شعورى ، لا يستطيع الإنسان أن يراه ، ولا يستطيع العلم أن يحدد مكانه ،أو يتحدث عنه ، إلا ويكون حديثه رجماً بالغيب .

ويقولون : إن اللاشعور (مخزن) ، يختزن فيه العقل الإنسانى ، تلك

---

(١) دكتور أحمد زكى صالح : نظريات التعلم — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٧١ ، ص ١٨٢ .

(٢) دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة إلى الشيخوخة — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ ، ص ١٢٠ .

(٣) دكتورة رمزية الغريب : التعلم ، دراسة نفسية تفسيرية توجيهية — الطبعة الثالثة — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٧ ، ص ٦٤ .

(٤) ألكسيس كاريل : الإنسان ، ذلك المجهول — تعريب شفيق أسعد فريد — مكتبة المعارف — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ١١٢ .

الذكريات ، التى يريد أن (يتخلص) منها . ويعتقد الإنسان أنه استطاع التخلص من هذه الذكريات ، فإذا بها تختزن فى هذا (اللاشعور) ،وتكون أكثر تأثيراً فى حياته ، وتوجيها لها ، من أى شىء آخر محسوس .

وكان فرويد ، هو الذى اكتشف هذه (القوة المؤثرة الحيوية) فى حياة الإنسان ، وفى توجيه سلوكه ، ولكنه أودعها أحط غرائز الإنسان ، وهى الغريزة الجنسية . ثم جئنا نحن فى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، ورأينا أن (اللاشعور) ، ليس مخزناً لأحط غرائز الإنسان وأكثرها بهيمية ، وإنما هو مخزن لأسمى هذه الغرائز ،وأكثرها نورانية ،وهى الغريزة الروحية ، أو الغريزة الدينية (١) ، إن صح هذا التعبير . ثم عدنا وأكدنا هذه الحقيقة ، فى دراستنا لقضية الألوهية ، فى الكتاب الثانى من السلسلة ، عن (الله والإنسان المعاصر) (٢) .

وأكثر من ذلك ، أننا فى كتابنا السابق (الخامس من السلسلة) ، عن (اليوم الآخر) ،رأينا إمكانية أن يكون ذلك اللاشعور ، غير المرئى ، وغير المحسوس ، هو هو (اللوح المحفوظ) ، تلك الصفحة البيضاء ،التى تسجل فيها بدقة ،أعمال الإنسان ، والتى على أساسها سيكون حسابه يوم القيامة(٣).

ومن مجموع هذه المواهب والملكات والقوى الإنسانية — الجسد

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الله والإنسان المعاصر — الكتاب الثانى من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر)— الطبعة الأولى— دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص١٧ — ٢٠.

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : اليوم الآخر والحياة المعاصرة — الكتاب الخامس من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

بأدواته وأجزائه المعقدة . والجهازى العصبى ، واللاشعور ، والاتصالات الاجتماعية المختلفة — تتكون (الذات الإنسانية) ، أو الشخصية Character ، وتتفرد بين غيرها من الناس ، ويكون لها ما تعرف به من سمات وملامح .

غير أن (الذات الإنسانية) — كما يقول بذلك العلم الحديث — « ليست محصلة (حسابية) لهذه القوى ، وإنما هى محصلة (جدلية) لها ، بمعنى أننا قلما نجد ذاتين إنسانيتين متشابهتين ، رغم أن (المادة الأولية) لكل منهما واحدة » (١) .

ومن ثم نجد طغيان الجسد والعضلات واضحاً عند الرياضيين مثلا ، بينما نجد طغيان العقل واضحاً عند المفكرين والعباقرة ، فى مختلف فروع العلم مثلا ، ونجد طغيان الجانب الروحى واضحاً فى حياة الأنبياء ، وحواريهم ، والمؤمنين بهم ، والسائرين على دربهم — ولكن طغيان جانب من هذه الجوانب ، لا يلغى بقية الجوانب ، ولا يعطل سائر المواهب والملكات ، التى أعطاها الله للإنسان .

الموهبة الروحية :

يرى وحيد الدين خان ، أن « الوحى » لا يعدو أن يكون (إشراقا كونيا) ، من نوع الإشراقات التى عهدناها فى حياتنا ، على مستويات محدودة » (٢) .

وما يقصده وحيد الدين خان هنا ، هو أننا نلاحظ فى حياتنا العادية ،

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة ... فى الإسلام » — تعليم الجماهير — مجلة متخصصة ، تصدر عن الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار — السنة الرابعة — العدد الثامن — يناير ١٩٧٧ ، ص ٥٢ .

(٢) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل علمى إلى الإيمان — ترجمة ظفر الإسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الإسلامى — ١٩٧٤ ، ص ٩٨ .

إشراقات روحية لدى بعض الناس ، لا تتوفر لغيرهم ، وتتمثل هـــذه الإشراقات أحياناً ، فى أحلام ، أو رؤى ، يراها الإنسان فى نومه ، حتى إذا جاء الصباح ، تحققت الرؤيا ، وصدق الحلم .

وما حدث لسيدنا يوسف فى سجنه ، حين رأى البقرات السمان والبقرات العجاف ، ثم تحقق ما رأى فى حياة مصر ، لازال يحدث حتى اليوم ، لدى بعض الناس ، ممن يعيشون بيننا .

بل إن الإنسان الواحد ، أحياناً (تصيبه) هذه الإشراقات الروحية ، دون أن يكون (متعوداً) عليها ، فتأتيه فى حياته لحظات إشرافيه معينة ، يتمنى أن تستمر معه ، ولكن الأمر ليس بيديه ، بحيث يضمن استمرارها .

وهذا الذى يحدث لنا (أحياناً) من إشراقات روحية ، نجده يحدث (دائماً) لبعض الناس ، ممن قد لا نلتفت إليهم فى حياتنا العادية .

وهذا الذى يحدث لنا أحيانا من إشراقات روحية ، ويحدث دائما لبعض الناس ، يحدث دوما ، وعلى درجة عالية من الكفاءة والقوة ، للصالحين من الناس ، وعلى رأسهم الأنبياء بطبيعة الحال .

وهذا الاختلاف بين الناس فى (الموهبة الروحية) ، نرى اختلافا مماثلا له بينهم فى الموهبة الجسدية ، فنرى ملاكما ، تتركز موهبته فى عضلات ذراعيه ، ومصارعا ، تتركز موهبته فى أنحاء أخرى من جسده ، ولاعب كرة ، تتركز موهبته فى قدميه ، وما إلى ذلك .

كما نجد اختلافا مماثلا للاختلافين السابقين ، فى الموهبة العقلية ، فنرى نبوغا فى الهندسة ، أو نبوغا فى الطب ، أو فى الميكانيكا ، أو فى غيرها ، حسب (اتجاه) هذه الموهبة العقلية .

فهو لون آخر من ألوان (الفروق الفردية) ، فى الملكات والمواهب ، التى أفاء الله بها على الإنسان .

وفى الموهبة الروحية ، كما سبق ، يصل الأنبياء والرسل ، إلى قمة ، لا يصل إليها غيرهم فيها ، حيث نجد (الوحى) يتنزل عليهم من السماء ، ومعنى نزول الوحى ، هو « أن الله تعالى ، ينزل كلامه على إنسان ، يختاره من بين الناس ، ليخبر الناس بما يرضى الله تعالى » ، أو هو وجود « خط اتصال ساخن ، بين الله سبحانه ، وبين الرسول » ، حيث نرى « الله تعالى — لحكمة يعلمها — يرسل رسائله ، بوسائل خافتة خفية ، إلى الإنسان المختار للرسالة ، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها »(١) .

وقد حل لنا الإمام الشيخ محمد عبده ، هذه (القضية) ، بمنطقه الذى تعود أن يعالج به غيرها من القضايا ، وهو منطق العقل ، المعتمد على العلم الموسوعى الشامل . ويرى الأستاذ الإمام ، أن « درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضا ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر ، التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه » .. « ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك ، إلى ما لا يحصره العدد » .

ثم يرى أنه « من ضعف العقل ، النكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها ، عند الوصول إليها ، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ، ما يكون لها من نقاء الجوهر ، بأصل الفطرة ، ما تستعد به من محض الفيض الإلهى ، لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الإنسانية ، إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه ، بعصا الدليل

(١) المرجع السابق ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم ، إلى تعليم ما علمت ، ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة ، وفى كل زمان ، على حسب الحاجة »(١).

كما ينحو الدكتور عبد الرحمن بدوى بالقضية منحى آخر ، ولكنه يصل — فى النهاية — إلى ما وصل إليه الأستاذ الإمام ، فهو يرى أن « النبوة من الخصائص المميزة للحضارة العربية : ففيها وحدها ظهرت ، وكان ظهورها نتيجة لطبيعة روحها »(٢) ، وأن « حياة نبينا ، فى الدنيا ، ثم فى ضمير الأمة الإسلامية ، تمثل تلك الصورة أروع تمثيل. أما فى حياته ، فقد نما شعوره بالرسالة الإلهية ، التى ألقيت اليه من لدن الواحد القهار الرحمن معا ، ابتداء من تحنثه ، حتى حجة الوداع » ، فابتدأ شعوره بأنه «وسيط بين الله وبين البشر ، بأنواع الرؤيا الصادقة ، التى كانت تجيئه (كفلق الصبح) »(٣) .

وما دام الرسول مرسلا من عند الله ، فإن دعوته لا بد أن تكون متجهة إلى دعوة الناس إلى طريق الله ، وجمعهم على هذا الطريق ، وإبعادهم عن الطرق الجانبية أو الفرعية ، التى يخلقها الشيطان ، ليسهل عليه السيطرة على القلوب ، وتحويل مسارها عن طريق الله :

— « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »(٤).

---

(١) الأستاذ الإمام ، الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد — تعليق السيد الإمام محمد رشيد رضا — الطبعة الثامنة عشرة — مكتبة القاهرة — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) عبد الرحمن بدوى : الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٤٧ ، ص ١٤٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٤) قرآن كريم : الأنعام — ٦ : ١٥٣ .

ويكون الرسول — على هذا الأساس — مهتماً بربط الإنسان بالله سبحانه ، أو مهتماً بربط (العقل الإنسانى) ، بما اصطلحنا على تسميته فى مواطن مختلفة ، من كتب السلسلة ، (بالعقل الكونى) ، ربطاً يعود به الإنسان إلى فطرته ،التى فطره الله عليها ، والتى نجدها واضحة وضوحاً تاما فى حياة الحيوان والنبات ، حيث نرى (الإلهام) يدفعها إلى طريق الله — أو فطرته — تلقائيا ، وبلا سابق تفكير ، وإلا « فمن أين » —على حد تعبير الدكتور مصطفى محمود — « جاءت تلك المخلوقات العجماء بعلمها ودستورها ، إن لم يكن من خالقها ؟ » (١) .

وقد ظلت الحيوانات والهوام ، تسير على صراطها المستقيم ، مستجيبة لأوامر هذا (العقل الكونى) ، لأنها تسير ملهمة من الله ، أما الإنسان ، فإنه ينحرف عن الصراط ، لأن الله أعطاه القدرة على الاختيار ، ومن سوء الاختيار يكون انحرافه ، وانصرافه عن الصراط ، إلى سبل ، تباعد بينه وبينه .

وعندما ينحرف الناس عن الصراط المستقيم ، تغدو الحاجة ماسة إلى إعادة الناس من جديد ، إلى هذا الصراط ، وتغدو الحاجة ماسة ـ بالتالى ـ إلى رجل يتمكن من تحقيق الاتصال بالله ، عن طريق ذلك (الخط الساخن) .. فيكون الرسول ، وتكون الرسالة .

أمة واحـــدة :

ويأتى الرسول ، بعد فساد العلاقة بين الناس وخالقهم ، فساداً تفسد به الحياة ، وتغدو ثقيلة على الأحياء .

ومن خلال ذلك (الخط الساخن) ، يتمكن الرسول من وضع الأقدام من جديد . . . على طريق الله .

---

(١) مصطفى محمود : رأيت الله — دار المعارف بمصر — ١٩٧٦ ، ص ٨ .

وبعد فترة من الرسول ، يبرد الخط . . . وتكون ردة عن الطريق ، ويكون رسول جديد ، وهكذا ، حتى جاء خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وسلم .

وعدد الرسل والأنبياء كثير ، بحيث يكون من غير المعقول حصره ، ويذكر القرآن الكريم عدداً منهم ، فى مواضع مختلفة منه ، وبمناسبات مختلفة ، ولكنه يغفل ذكر الكثيرين منهم ، لأن القرآن الكريم ، رغم ما فيه من إشارات تاريخية، ليس كتابا فى التاريخ ، وماورد فيه من إشارات تاريخية ، إنما ورد للعظة والعبرة وحدهما ، ومن ثم كانت الإشارة — أو الإشارات — التاريخية ، التى وردت فيه ، خاصة بالبعض منهم ، وكان إغفال الإشارة إلى البعض الآخر :

— «فاصبر ، إن وعد الله حق، فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك، فإلينا يرجعون . ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق ، وخسر هنالك المبطلون »(١) .

ورغم تعدد الأنبياء ، وتعدد القوم الذين أرسلوا إليهم ، واختلاف ظروف الزمان والمكان بالنسبة لكل منهم ، فقد كانت الرسالات — فى جوهرها — رسالة واحدة . وليس عبثا فى كتاب الله ، أن يختم حديثه عن بعض الأنبياء ، فى موضعين منه ، بهذه الحقيقة ، تأكيداً لها :

— « ... إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (٢) .

— « ... يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا، إنى بما تعملون

---

(١) قرآن كريم : غافر — ٤٠ : ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٩٢ .

عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » (١) .

ومعنى أنهم أمة واحدة ، أنهم جاءوا يسيرون على طريق واحد ، هو طريق الله ، ومن أجل ذلك ، كان ختام الآية مرة بالأمر بالعبادة ، ومرة أخرى بالأمر بالتقوى ، وهما لفظتان تحملان نفس المعنى ، وإن اختلفتا فى الشكل .

ولذلك يعلق الشهيد سيد قطب ، على الآية الأولى بقوله : « وفى نهاية الاستعراض ، الذى شمل نماذج من الرسل ، ونماذج من الابتلاء ، ونماذج من رحمة الله — يعقب بالغرض الشامل من هذا الاستعراض : (إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون) .

ان هذه أمتكم : أمة الأنبياء . أمة واحدة : تدين بعقيدة واحدة، وتنهج نهجاً واحداً ، هو الاتجاه الى الله ، دون سواه . أمة واحدة فى الأرض ، ورب واحد فى السماء ، لا إله غيره ، ولا معبود إلا إياه .

أمة واحدة ، وفق سنة واحدة ، تشهد بالإرادة الواحدة ، فى الأرض والسماء .

وهنا يلتقى هذا الاستعراض بالمحور ، الذى تدور عليه السورة كلها ، وتشترك فى تقرير عقيدة التوحيد ، تشهد بهـــا سنن الكون . وناموس الوجود »(٢) .

كما يعلق على الآية الثانية بقوله : « وعندما يصل إلى هذه الحلقة من سلسلة الرسالات ، يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل ، وكأنما هم متجمعون فى صعيد

---

(١) قرآن كريم : المؤمنون — ٢٣ : ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الرابع (الأجزاء : ١٢ — ١٨) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٢٣٩٥ ، ٢٣٩٦ .

واحد ، فى وقت واحد ، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية ، لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة ، التى تربط بينهم جميعاً » .

« إنه نداء للرسل ، ليمارسوا طبيعتهم البشرية ، التى ينكرها عليهم الغافلون » ، « ونداء لهم ليصلحوا فى هذه الأرض » ، و« ليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته ، إنما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه ، إلى أفقها الكريم الوضىء ، الذى أراده الله لها ، وجعل الأنبياء رواداً لهذا الأفق ، ومثلا أعلى » .

« وتتلاشى آماد الزمان وأبعاد المكان ، أمام وحدة الحقيقة ، التى جاءبها الرسل ، ووحدة الطبيعة التى تميزهم ، ووحدة الخالق الذى أرسلهم ، ووحدة الاتجاه الذى يتجهون نه أجمعين : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون) »(١) .

فرسالات الرسل واحدة ، بمعنى أن خطها الذى تسير فيه واحد ، يصل الإنسان بالله فى النهاية ، على النحو الذى تتحقق به كرامة الإنسان ، ويتحقق استحقاقه لذلك التكريم الذى كرمه به ربه ، يوم خلقه واستخلفه — ويقطع على الشيطان تلك السبل التى يسلكها إلى هذا الإنسان ، فى لحظات ضعفه ، فيتمرد على العبودية لله ، ليسير فى طريق العبودية لغير الله ، وهى عبودية تحط من قدره ، ولا تجلب له شرفا .

لقد جاء الرسل جميعا ، « يرشدون العقل إلى معرفة الله ، وما يجب أن يعرف من صفاته ، ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده ، فى طلب ذلك العرفان ، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد» ، و «يبينون للناس ما اختلفت

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٦٩ .

عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم » ، « يصنعون لهم بأمر الله حدوداً عامة ، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم »(١) .

ونتيجة لفساد العلاقة بين الإنسان وربه ، كانت العلاقات تفسد بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان والكون الذى يعيش فيه ، وكانت الحياة الإنسانية تتحول إلى (جهنم) أرضية ، خلقتها مطامع الإنسان وشهواته ، بعد أن انطلقت من عقالها ، بلا ضابط من حق أو من خير ، فكان الرسول يأتى لإصلاح هـــذه العلاقة ، فتصلح الحياة الأرضية أيضاً ، وتتحول الحياة الإنسانية إلى (جنة) أرضية ، شبيهة بتلك الجنة ، التى وعد الله بها عباده المتقين ، يوم القيامة .

والملاحظ فى تاريخ الرسل ، أنهم كانوا كثيرين ، فى عهود الإنسانية الأولى ، وأن عددهم أخذ يقل ، كلما تقدم الإنسان عمراً على هذه الأرض ، وذلك مؤشر على أن الإنسانية فى (طفولتها) ، أشد حاجة إلى هؤلاء الرسل ، وأنها كلما اقتربت من (النضج) ، قلت حاجتها إليهم ، حتى إذا جاء خاتم الأنبياء والرسل ، عليه الصلاة والسلام ، كانت الإنسانية قد وصلت إلى درجة من النضج ، تستطيع معها أن تعتمد على نفسها ، فى سيرها على ما جاء به ، صالحاً لكل زمان ومكان .

لقد كانت الإنسانية ، فى أول حياتها على الأرض ، تحس بالضعف ، « ولهذا الضعف الذى كانت عليه الإنسانية فى مراحلها الأولى ، فقد كثر مبعوثو السماء إليهم ، فكان لا يكاد يخلو مجتمع حينذاك من رسول ، ولا تعيش قرية من غير نبى ... وذلك لأن الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى الرعاية

---

(١) السيد أحمد الهاشمى : السعادة الأبدية ، فى الشرائع الإسلامية — الطبعة الرابعة — دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان — ١٩٧٣ ، ص ١٠١ — ١٠٣ .

والعناية ، فى طور طفولته ، وهو فى هذا الدور من حياته ، إن لم يجد من يرعاه ، ويقوم على توجيهه ، هلك ، أو بات فى معرض الهلاك . وكذلك الإنسانية فى طفولتها . . تكون غيرها حين تشب وترشد »(١).

ورغم تباعد المسافات ، فى هذه العهود الإنسانية الأولى ، وضعف وسائل الاتصال بين مجتمع وآخر ، فإن هذا التباعد بين مجتمع قديم وآخر ، وبين رسول وآخر ، لم يؤد إلى تباعد فى (جوهر) الرسالة ، بين رسالة وأخرى ، ومن ثم كانت (اللغة المشتركة) موجودة بين هذه الرسالات جميعاً ، بشكل لافت للنظر .

و (اللغة المشتركة) كانت موجودة ، لأن هذه الرسالات جميعا ، كانت نابعة من مصدر واحد ، هو الله سبحانه — على نحو ما سنرى فى الفصل التالى .

يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق :

عندما يفلح الشيطان ، فى قطع علاقة الإنسان بربه ، يفلح — بعد ذلك — فى (مسخ) الإنسان مسخا ، فيأخذ فى (توجيهه) ، على النحو الذى يريده ، ويسير الإنسان وراء شيطانه . . أعمى وأصم ، معتقداً أنه يسلك خير السبل :

— « . . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون »(٢) .

— « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا . قل : هل ننبئكم بالأخسرين . أعمالا ؟ الذين ضل

---

(١) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا ، قضية الألوهية . . . بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٩١ .
(٢) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٣٠ .

سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »(١) .

ويكون منطقيا — وقد تم مسخ الإنسان مسخا — أن يتخذ الإنسان لنفسه إلها ، يكون هو قد صنعه بيديه ، وليكن هذا الإله صنما شكلته يد بشرية ، وحملته ونقلته وتصرفت فيه ، أو ليكن مالا جمعه ، أو زعيما سياسيا ، ربما كان قد ساهم فى إيصاله إلى السلطة ، أو ليكن غانية فتنته بجمالها ، أو ليكن ما يكون .

وهذا الذى لا يبدو منطقيا فى ضمير المؤمن ، يبدو منطقيا تماما فى ضمير الكافر ، بعد أن استطاع الشيطان مسخ عقله ، فصار عقل حيوان ، أو عقلا دون عقل هذا الحيوان .

وعندما ينحط عقل إنسان إلى هذا الدرك ، تكون غشاوة كثيفة ، قد وضعت بين هذا الإنسان ، وبين الحقيقة ، فلا يمكنه أن يراها :

— « إن الذين كفروا سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم »(٢) .

— « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ »(٣) .

وربما استطاع المؤمن ، الذى يرى الحقيقة كاملة ، أن يلتمس عذراً لمن

---

(١) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ١٠٢ — ١٠٤ .
(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٦ ، ٧ .
(٣) قرآن كريم : الجاثية — ٤٥ : ٢٣ .

يخالفونه فى الرأى، أو يرثى - على الأقل - لهؤلاء الخصوم أو المخالفين، ولكن الكفار، الذين (ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) ، على حد التعبير القرآنى الرائع السابق ، يحسبون أنهم هم وحدهم على الحق ، وأن غيرهم على الضلال . وأكثر من ذلك ، أنهم يعلنون الحرب على هذا (الغير) ، بسبب وبغير سبب .

ولا يفسر هذا الموقف الغريب ، لهؤلاء الضالين المضللين ، سوى أنه لون من ألوان مركبات النقص ، التى تستبد بهم، فتدفعهم إلى محاولة السيطرة على غيرهم ، والاستبداد بهم ، كرد فعل لذلك الهوان الذى يحسون به ، نتيجة لسيطرة غيرهم عليهم ، واستبداد هذا الغير بهم .

وما عرف التاريخ حاكما مستبداً ، إلا وكان وراء استبداده نقطة ضعف قاتلة ، تسيطر عليه ، فتدفعه دفعا إلى الاستبداد بالآخرين ، لعله يدارى — باستبداده — ما يراه فى نفسه من نقطة — أو نقاط — ضعف ، فهو — بهذا الاستبداد — يستعرض عضلاته أمام الناس، حتى يخيفهم ، فلا يقتربوا من نقطة الضعف هذه ، فيكون مقتله .

وهذا الموقف المتشدد من جانب هؤلاء الضالين المضللين ، يقابله — على الطرف الآخر - موقف المؤمنين ، فى تسامحهم ، ولينهم ، حتى مع أعدائهم . إنه تسامح ولين ، يعكس ثقة بالنفس وقوة ، مرجعهما الإحساس العميق بالعبودية لله ، وفى مثل هذا الإحساس قوة، تتزلزل أمامها الجبال ، وتتحطم الجيوش ، وتتهاوى العروش المتجبرة .

ونتيجة لذلك ، نجد أولئك الكفار ، الضالين المضللين ، يقفون من الرسل موقفا ، فيه تشدد ، وفيه تكبر ، وفيه عنف . وقد يكون ذلك نتيجة (للمصالح المكتسبة) المهددة ، بسبب تلك (الدعوة الجديدة) ، وقد يكون

نتيجة من نتائج الإحساس بالهوان وفساد الرأى ، دفع صاحبه إلى المكابرة ، وقد يكون . . . وقد يكون ...

ولكن الذى لاشك فيه ، هو أن أسباب هذا الموقف المتشدد ، تحتشد جميعاً ، تحت سبب واحد كبير ، هو هذا الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو أن هؤلاء الكفار ، يدارون بتشددهم هذا ، ذلك الضعف الذى يحسون به ، أمام المال ، أو أمام السلطان ، أو أمام التقاليد ، أو أمام الشيطان — باختصار — مهما كان الشكل ، الذى يتسرب من خلاله ذلك الشيطان ، إلى نفس هذا الكافر ، فيسيطر عليها .

وينتحل الكفار لأنفسهم وللناس ، شتى الأعذار ، التى يبررون بها رفضهم للرسالة وللرسول ، وصدهم عن طريق الله .

فالمستضعفون - مثلا - يكونون أسرع استجابة إلى الرسالة وإلى الرسول ، لأنهم يعتبرون من ذوى (المصالح المكتسبة) ، عندما تنجح الرسالة ، وتسود تعاليمها . ومن ثم يتخذ الكفار من إيمان هؤلاء المستضعفين ، وسيلة من وسائل الهجوم على الرسالة والرسول :

— « كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون .... قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ »(١) .

— « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه : إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من

---

(١) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٠٥ — ١١١ .

قومه : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، ومانرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » (١) .

والرسول إنسان ، قد يكون غنياً ، وقد يكون فقيراً ، وقد يكون نجاراً أو حداداً أو جامع حطب ، وقد يكون مرموقاً فى قومه ، وقد يكون مغموراً .

وبشرية الرسول مطلوبة ، لأنه مرسل إلى بشر ، فلابد أن يكون من هؤلاء البشر ، حتى يترجم تعاليمه ، إلى سلوك حى ، بارز فى تصرفاته ، قبل أن يبرز من خلال الألفاظ ، التى يدعو بها الناس إلى طريق الله .

فبشرية الرسول هى الأمر المنطقى ، فى حياة الأنبياء والرسل ، وغير هذه البشرية هو الأمر غير المنطقى .

ولكن الكفار — على ما نراه من سلوكهم العام — يقلبون الحق باطلا ، والباطل حقا ، لأن لهم منطقهم الخاص .

وبدلا من أن تكون (بشرية) الرسل نقطة قوة ، تدفعهم إلى الإيمان بهؤلاء الرسل ، تكون — فى نظرهم — نقطة ضعف ، تدفع بهم إلى التصدى لهم ، والصد عن سبيل الله ، الذى يدعون إليه .

ولا يستطيع الإنسان المنصف ، أن يأتى بالآية السابعة من سورة الفرقان ، ليستشهد بها على هذا الموقف الشاذ ، الذى يقفه دائما الكفار ، الضالون المضللون ، فيما يتصل بما نحن بصدده ، دون أن يمهد لهذه الآية ، بالآيات الست التى تسبقها ، لأن الآيات التى سنعرضها كلها ، تعرض القضية برمتها ، فى إيجاز وتركيز ، ودقة شديدة ، من خلال الرأى والرأى المضاد ، وبذلك

---

(١) قرآن كريم : هود — ١١ : ٢٥ — ٢٧ .

تبدو (الحقيقة) كاملة ، أمام من يريد أن يرى الحقيقة . وربما سميت سورة الفرقان بهذا الاسم ، لأجل هذا السبب ، كما سنرى بعد قليل :

— « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء ، فقدره تقديراً . واتخذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً . وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزوراً . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل : أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيما . وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً . انظر : كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا ؟ »(١) .

ومن ثم يؤكد القرآن الكريم ، بعد قليل من نفس السورة (الفرقان)، أن الرسل جميعا كانوا بشراً ، لأنه يجب ألا يكونوا إلا . . . بشراً :

— « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ، إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة : أتصبرون ؟ وكان ربك بصيراً » (٢) .

وكأنما سميت سورة (الفرقان) بهذا الاسم لهذا السبب ، فهى تحسم هذه القضية حسما ، وهى تفوت على الكفار والمعاندين والمكابرين ، من

(١) قرآن كريم : الفرقان — ٢٥ : ١ — ٩ .
(٢) قرآن كريم : الفرقان — ٢٥ : ٢٠ .

الضالين المضلين ، أية فرصة يتشبثون بها ، فى هذه القضية ، وتضعهم حيث يجب أن يوضعوا : كفاراً ضالين مضللين . . فحسب .

والفرقان هو اسم القرآن ، وقد سميت باسمه ، لأنها تجمع بين دفتيها ، مجموع ما تفرق فيه ، من عظات وعبر ، ومن تصحيح للمسار الإنسانى كله ، إلى طريق الله ، ومن تشريع ، يضمن لكل إنسان حقه ، فى إطار من عبودية لله ، لا ترتفع الجباه إلا بها .

والقرآن فرقان ، « بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، بل بما فيه من تفرقة بين نهج فى الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد . فالقرآن يرسم منهجاً واضحا للحياة كلها ، فى صورتها المستقرة فى الضمير ، وصورتها المتمثلة فى الواقع ، منهجاً لا يختلط بأى منهج آخر ، مما عرفته البشرية قبله ، ويمثل عهداً جديداً للبشرية ، فى مشاعرها وفى واقعها ، لا يختلط كذلك بكل ما كان قبله . فهو فرقان بهذا المعنى الواسع الكبير ، فرقان ينتهى به عهد الطفولة ، ويبدأ به عهد الرشد ، وينتهى به عهد الخوارق المادية ، ويبدأ به عهد المعجزات العقلية ، وينتهى به عهد الرسالات المحلية الموقوتة ، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة » (١) .

والسورة التى بين أيدينا سورة الفرقان ، لأنها تفرق هى الأخرى بين الحق والباطل ، فتضع الرسول — والرسل أجمعين — حيث يجب أن يوضعوا ، من الإعزاز والتعظيم والتكريم ، رغم بشريتهم ، وتضع الكفار الضالين المضلين ، حيث يجب أن يوضعوا ، من التسفيه والتحقير — وأولئك عظموا ويعظمون ، هم ومن يؤمنون بهم ، لأنهم يسيرون على الفطرة ، ويلتزمون بطريق الله ، وهؤلاء حقروا ويحقرون ، لأنهم يحاربون الفطرة ، ويصدون عن سبيل الله .

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الخامس (الأجزاء ١٩ — ٢٥) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٢٥٤٧ .

ويسدل الستار :

ويقع صدام لابد أن يقع ، بين الحق والباطل .

ويكون العدوان عادة من الكفار الضالين المضللين ، ويكون موقف الرسول والمؤمنين معه ، مجرد . . . رد للعدوان .

وللعدوان من جانب الكفار منطقه ، ولكراهية العدوان من جانب المؤمنين منطقه أيضاً .

فالكفار حين يعتدون ، إنما يترجمون حقد قلوبهم ، وصغار نفوسهم ، وإحساسهم بالنقص ، إلى سلوك ظاهر ، فتكون الحرب ، بمختلف صورها وأشكالها .

والمؤمنون حين يكرهون العدوان ، إنما يترجمون الحق الذى يدعون إليه ، والخير الذى يملأ قلوبهم ، وعلو همتهم ، وحبهم للناس جميعاً ، بما فيهم الأعداء ، وتمنى الخير لهم ، إلى سلوك ظاهر أيضاً ، فيكون صفح جميل ، وتجنب للحرب ، ما كان هناك سبيل إلى تجنبها .

وتبدأ حرب الكفار للرسل والمؤمنين بهم عادة ، حرب شائعات ، وحرب سخرية واستهزاء ، وعدم اكتراث ظاهر ، يهونون بها من شأن الرسالة والرسول ، ويسخرون منه ، ومما يدعو إليه ، ويتهمونه بالسحر ، أو بالجنون :

— « ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ، ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ » (١) .

— « ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (٢) .

---

(١) قرآن كريم : الرعد — ١٣ : ٣٢ .
(٢) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٤١ .

— « ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول ، إلا كانوا به يستهزئون » (١) .

— « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رســـول ، إلا قالوا : ساحر أو مجنون » (٢) .

ويكون رد الرسول على قومه ، رداً يليق به ، يفيض رقة ونبلا ، وتمنى خير ، وأملا فى الهداية ، ومداً ليد السلام :

— « وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذوننى ، وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ . . . » (٣) .

— « كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ » (٤) .

— « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين » (٥) .

— « كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . . . » (٦) .

---

(١) قرآن كريم : الحجر — ١٥ : ١٠ ، ١١ .
(٢) قرآن كريم : الذاريات — ٥١ : ٥٢ .
(٣) قرآن كريم : الصف — ٦١ : ٥ .
(٤) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٠٥ — ١١١ .
(٥) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٢٣ — ١٢٧ .
(٦) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٤١ — ١٤٣ .

وتتكرر الصورة ، بنفس ألفاظها تقريبا ، فى نفس سورة (الشعراء)، مع لوط ، وشعيب ، عليهما السلام ، مع قومهما .

ويزداد أنصار الرسول والمؤمنون به ، عدداً ، ويزدادون قوة ، ويرتد كيد الكفار إلى نحورهم ، فلا تفلح فى إيقاف مسيرة الإيمان سخرية ولا استهزاء . وهنا تتحول حرب الشائعات والسخرية والاستهزاء ، إلى حرب حقيقية ، فما فشل الكلام فى إيقافه ، لابد — من وجهة نظرهم — أن يوقفه السلاح .

وهنا تتدخل يد الله سبحانه ، تفل السلاح فى يد الكفار ، وتزود الرسول ، والمؤمنين معه ، بالسلاح .

والمؤمنون ، الذين آمنوا بالرسالة والرسول ، سلاح ، زوده الله به رسوله مقدما ، قبل أن تبدأ المعركة المسلحة .

وصبر هؤلاء المؤمنين على الأذى ، بتأييد الله لهم ، سلاح ، زود الله به المؤمنين به وبرسوله .

وتدخل الله — فى الحرب — مع الرسول ، والمؤمنين به ، سلاح ، يزود الله به رسوله فى النهاية .

ومن كان الله فى صفه على هذا النحو ، كانت له الغلبة ، حتى ولو ألقى به فى النار ، كما حدث مع الخليل إبراهيم ، الذى تحولت النار إلى (برد وسلام) عليه ، على حد تعبير القرآن الكريم :

— « قالوا : حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين . قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له اسحق ويعقوب

نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . . »(١) .

وتتكرر صور التدخل الإلهى ، مع الرسول ومع المؤمنين به ، على نحو قريب من تدخله مع أبى الأنبياء عليه السلام ، فقد أنقذ أبا الأنبياء من نار حقيقية ، ولكنه أنقذ أبناءه من بعده ، من نار مجازية ، لا تقل فى عنفها وتدميرها ، عن تلك النار الحقيقية .

ويسدل الستار ، بعد هذا التدخل الإلهى ، على نصر مؤزر للرسول والمؤمنين به ، وهزيمة منكرة ، أو فناء تام ، للشيطان وزبانيته :

— « قل : سيروا فى الأرض ،فانظروا : كيف كان عاقبة المجرمين؟ »(٢) .

— «قل:سيروافى الأرض، فانظروا : كيف كان عاقبة المكذبين؟ »(٣).

— « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمودفأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله المؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية .لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن واعية »(٤) .

— « إنا أرسلناك بالحق ، بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا ، فكيف كان نكير ؟ »(٥) .

---

(١) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٦٨ — ٧٢ .
(٢) قرآن كريم : النمل — ٢٧ : ٦٩ .
(٣) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٣٦ .
(٤) قرآن كريم : الحاقة — ٦٩ : ٤ — ١٢
(٥) قرآن كريم : فاطر — ٣٥ : ٢٤ — ٢٦ .

الفصل الثانى

منابت مختلفة

تقـــديم :

إذا كان الأنبياء مجموعة من الناس ، اختارهم الله ، ليقودوا قومهم إلى طريق الحق ، الذى انحرفوا عنه ، وزودهم بالمواهب والملكات ، التى تمكنهم من تحقيق هذا (الاتصال) بالله ، و(التلقى) عنه ، فربما كان مفيداً — هنا — أن نتابع مسيرتنا مع هؤلاء الهداة ، الموهوبين ، الذين اختارهم الله ، واختصهم بأنبل رسالة ، عرفتها الإنسانية ، عبر تاريخها الطويل .

وإذا كنا « نعلم أسماء بعض الأنبياء ، وأسماء الأمم التى بعثوا فيها ، ولكننا لا نعلمهم جميعاً ، ولا تحصيهم لنا كتب الأديان الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن »(١) — فإن الواقع — كما تقول به كتب الأديان الثلاثة — وكما رأينا فى الفصل السابق — يدل على أن ما جاءوا به جميعاً ، إنما هو « دين واحد من ناحية العقيدة . . وقد نزلت شرائع هذا الدين الواحد ، على مراحل »(٢) . والتفكير السريع فى القضية ، يقودنا إلى القول بأن (منابتهم) كانت واحدة ، وبأن البيئات التى نشأوا فيها كانت متقاربة ، وبأنها كانت بحيث تقودهم إلى السير فى طريق القيادة هذا . . . القيادة إلى الله .

وربما ندهش ، حين نرى أن هذه المنابت ، كانت متباينة تماماً ، فمنهم من

---

(١) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — رقم (١) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم ومكتبة النهضة المصرية ، ص ٧٥ .

(٢) مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصرى للقرآن — الطبعة الثالثة — دار الشروق — بيروت — ١٩٧٣ ، ص ١٣٢ .

نشأ مترفا ، ومنهم من نشأ معدما ، ومنهم من نشأ فى جو علم ، ومن نشأ فى جو جهول . . وهكذا ، ولكن (الموهبة الروحية) ، التى منحها الله لكل منهم ، كانت فوق أى اعتبار ، للواقع المادى ، الذى نشأوا فى أحضانه .

وفى هذا التنوع ، من العظة والعبرة ، ماربما أشرنا إليه فى نهاية هذا الفصل ، وماسنشير إليه حتما فى نهايات هذا الكتاب .

انبياء نشأوا فى جو ترف :

وليست النشأة فى جو مترف ، بالعيب ، أو بالنشأة المشينة ، كما يدعى بذلك الماركسيون ، الذى يعلنون الحرب على (البورجوازيين) ، وبذلك يجعلون الطبقة المتوسطة ، كالطبقة العليا ، سواء بسواء ، فى معاداة الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، التى يرون أنها يجب أن تتجمع ، وتنظم صفوفها ، لتستطيع (الانقضاض) على البورجوازية ، والاستيلاء على ما بأيديها ، من مال وسلطة .

وكأن الماركسيين يعلنون الحرب على كل الطبقات (المستورة) فى المجتمع ، لا على المترفين وحدهم .

بل إن الإنسان يستطيع أن يدعى أن النشأة فى جو مترف ، ربما كانت مؤدية بالفرد إلى شفافية ونقاء وإنسانية ، لا تتوفر فى جو المعدمين ، الذين ربما لم يستطيعوا أن يفهموا معنى للحياة ، سوى الحقد والحسد والتنافر ، وحب التدمير ، والرغبة فى زوال أية نعمة ، من أى إنسان .

ولم يكن عجيبا ، أن ينسب إلى عمر بن الخطاب قوله : «لو تمثل لى الفقر رجلا لقتلته » .

ولم يكن عجيبا ، قبل ذلك وبعده ، أن يستعيذ الرسول الكريم ، من الفقر ، استعاذته من العجز والجهل ، ومن فتنة القبر .

بل إن جو الترف ، يوفر لصاحبه حرية وجرأة وشجاعة وإقداما ، ربما لا تتوفر كلها ، أو بعضها ، فى جو الحرمان والفقر .

فتولوستوى ، كان من أبناء الإقطاعيين فى روسيا القيصرية ، قبل الثورة الشيوعية ، ومع ذلك ، فقد كان — فى أدبه — ضد الإقطاع ، وضد الظلم الاجتماعى ، وكان فيه مع الفقراء والكادحين ، بشكل لم يكن عليه أديب روسى ، نشأ فقيراً .

وأحمد شوقى ، أمير الشعراء ، نشأ فى جو مترف ، منعم ماديا ، قريب من السلطة ، بل فى قلبها سياسيا . . ومع ذلك ، كان فى شعره مع الفقراء والمضطهدين السياسيين ، كما كان فيه حربا على الاستعمار الانجليزى لمصر ، مع أن هذا الاستعمار الانجليزى ، كان حليفا للخديو ، الذى تربى فى قصره ، واعتز — فى شعره — بهذه النشأة (الخديوية) ، التى نشأها .

ولم يكن على هذا النحو من الشجاعة والوطنية والإنسانية . . معاصره وصديقه ، شاعر النيل حافظ إبراهيم ، الذى يبدو أن الفقر كان يطحنه ، بشكل لا نستطيع معه أن نرى جرأة شوقى ، فى علاج مثل هذه المسائل .

فالمسألة إذن ليست مسألة غنى وفقر ، وليست مسألة طبقة أرستقراطية وطبقة بورجوازية أو طبقة عاملة . . كما يدعى الماركسيون ، وإنما هى مسألة (مواهب نفسية) ، قد تكون فاضلة وكاملة وراقية . . فى جو الطبقات غير المطحونة .

وممن نشأوا فى جو الترف من الأنبياء . . أبو الأنبياء ، إبراهيم الخليل ، وابن شقيقه ، نبى الله لوط . . وسيدنا أيوب ، وسيدنا سليمان ، وسيدنا موسى .

إلا أن الظروف التى أحاطت بكل واحد من هؤلاء الأنبياء ، كانت مختلفة عن الظروف التى أحاطت بالآخرين .

فإبراهيم عليه السلام ، أحد أبناء سام بن نوح ، ولد منذ أربعة آلاف

سنة(١) ، « فى بلدة فدام آرام ، إحدى مدن مملكة بابل قديما بالعراق ، وكان يحكمها النمروذ بن كنعان » ، « وكان أبوه آزر ، رجلا معروفا ومحترما بين قومه ، لأنه كان يصنع لهم التماثيل والأصنام ، التى يعبدونها »(٢) .

وكانت الأصنام ، هى مصدر النعمة، التى نشأ فى أحضانها الخليل إبراهيم، لأن أباه آزر، كان يعيش على صنعها ، ويعتبر صنعها مصدر رزقه ، ومايرفل فيه من نعمة ، بل وما يتمتع به من مركز اجتماعى محترم أيضا .

ونتيجة لجو الترف الذى نشأ فيه الخليل ، والمركز الاجتماعى الممتاز الذى كانت تعيشه الأسرة ، كان ابراهيم — منذ صغره — رقيقا وديعا ... حليما ، وكان بين الأنبياء ، « نموذج الهدوء ، والتسامح ، والحلم »(٣) — عكس شخصية موسى ، كما سنرى ، بسبب الجو الذى نشأت فيها تلك الشخصية، رغم الترف المحيط بها .

ونتيجة لهذا الجو أيضاً - جو الترف - قريباً من السلطة ، فى بلد يعتبر « من أكثر بلاد العالم فى ذلك الوقت تقدماً وازدهاراً »(١) ، كانت تلك النزعة الاستقلالية ، وتلك القدرة على تكوين رأى شخصى ، والدفاع عن هذا الرأى ، والأدب فى عرضه ، مع الرقة واللين فى مخاطبة الكبار ... ومنهم أبوه بطبيعة الحال .

---

(1) KHALIFA, RASHAD : Miracle of the Quran, Significance of the Mysterious Alfabets; Islamic Production International, Inc., St. Lewis Missouri, U. S. A., 1973, p. X, from the Introduction.

(٢) محمد اسماعيل إبراهيم : قصص الأنبياء والرسل ، كما جاءت فى القرآن الكريم ، ووردت فى كلام المفسرين ، وأخبار المؤرخين — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٥٣ .

(٣) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن — دار الشروق ، ص ١٦٤ .

(4) AL - QUADIREE, ATAWOOLLAH ALI SARFARAZ KHAN JOOMMAL : The Path of Islam; The World Federation of Islamic Missions, South African Branch, p. 197.

ولنتأمل سويا ، هـذه المظاهر المختلفـة ، المتشابـكة ، والمتنوعة ، فى عرض القرآن الـكريم ، لجانب من قصته ، فى سورة مريم :

— « واذكر فى الـكتاب ابراهيم ، إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنه قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليا . قال : أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا . قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا . وأعتزلـكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى ، عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » (٢) .

ففى هذا الجانب من القصة ، نرى النزعة الاستقلالية للابن واضحة ، كما نرى القدرة على تـكوين رأى مستقل ، واضحة أيضا ، ونرى كذلك احترام الرأى الآخر ، والتماس العذر له ، واحترام الـكبار .. وفى مقابله نرى النزعة الاستبدادية عند الأب ، فهى من سمات الأبوة فى هذه الأسر (الأرستقراطية) ، حيث يكون الأب ملاكا ... ما لم يستثر ، فإنه لا يعرف معنى من معانى التفاهم ، مع ابن يراه خرج على (أصول اللياقة) .

ثم نجد الأدب فى مخاطبة الأب الثائر .. رغم ثورته ، واستبداده .

إنها صورة يمكن أن تحدث فى أية أسرة مترفة ، بين ابن وابنه ، حول أية قضية ، يدور حولها جدل عنيف ، كهذه القضية .

وأبعاد هذه الصورة ، يمكن أن نراها تقيد حركات الخليل ، منذ بداية شكه فى هـذه الأصنام التى يصنعها والده ، أن تـكون آلهة تعبد ، وانتهاء

---

(١) قرآن كريم : مريم — ١٩ : ٤١ — ٤٨ .

بأمره أن يذبح ابنه ، ثم افتداء هذا الابن ، ساعة الصفر من تنفيذ أمر الله .

وكانت الأصنام هى (الخطأ) الأكبر ، الذى وقع فيه أبوه وقومه . . فليعلن الحرب على هذه الأصنام ، وليكن ما يكون . فهكذا يفعل أبناء هذه الطبقة ، عندما يؤمنون بفكرة .

وقد كان الإلقاء به فى النار ، جزاء فعلته التى فعلها بالآلهة . . حبيبا إلى نفسه ، لأنه ما أحب الموت فى سبيل الفكرة ، عند أبناء هذه الطبقة .

ومن بعده شرب سقراط السم بيديه ، عندما حكم عليه شيوخ أثينا بالموت ، لأنه سفه آراءهم ، فقد كانت آراؤهم - فى نظر الفيلسوف - تستحق هذا التسفيه .

ثم كانت هجرة الخليل إلى سوريا وفلسطين ومصر .. حبيبة إلى نفسه أيضاً ، لنفس السبب .

فهو فى شكه فى الآلهة المعبودة .. وبحثه عن إله يستريح إليه ضميره ، ثم فى وصوله إلى الله الواحد الأحد ، ثم فى ذلك الحوار الرائع بينه وبين ربه : —«رب أرنى : كيف تحي الموتى ؟ قال : أو لو تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى »(١) ، ثم فى مقابلته الإلقاء فى النار بالفرحة ، ثم باغترابه عن بلده فى سبيل ما آمن به ، ثم فى تلقيه الأمر بذبح ابنه ، بصبر ورضا ، ثم فى أدبه الجم ، وحلمه - هو فى ذلك كله وفى غيره ، (ابن ذوات) ، يعكس جو الترف الذى نشأ فيه ، فانعكس عليه فى كل تصرفاته .

وكان الخليل ابراهيم ، أبا الأنبياء ، كما كان أمة ، لأنه صار «قائداً لحركة إسلامية عالمية » ، « فقد بعث بابن أخيه لوط ، إلى ما يسمى الآن بوادى

(١) قرآن كريم البقرة — ٢ : ٢٦٠ .

الأردن » ، ولينشر منها الإسلام ، فى العراق وإيران ومصر » ، « وأرسل ابنه إسحق إلى كنعان (فلسطين الآن) ، التى تقع بين مصر وسوريا ، نفس الغرض » ، « أما ابنه اسماعيل ، فقد أرسله إلى مكة ، فى الحجاز »(١).

وفى المناطق الثلاث نفسها ، اتجهت رسالات الأنبياء والرسل فيما بعد ، على نفس الخط الابراهيمى .

وقريب من قصة الخليل ابراهيم ، قصة ابن أخيه لوط ، الذى خرج معه إلى مصر ، مطروداً من أرض الوطن ، بابل ، بسبب إيمانه به .

وقد أرسله الخليل ابراهيم إلى وادى الأردن ، وكان يسمى وقتئذ (سدوم) ، وكان يتكون من سبع مدن ، اشتهر أهلها « أن القاعدة عندهم إنما هى الفساد ، وأن من الشذوذ أن تجد للخير فيهم أثراً .

لقد كانوا يقطعون الطريق ، ولا يدعون أحداً يمر فيه ، إلا إذا أخذوا منه العشر ، هذا إذا لم ينهبوا ماله كله ، كما « كانوا يأتون فى ناديهم المنكر » (٢).

وفى مثل البيئة التى نشأ فيها لوط ، بيئة الترف ، قد تستساغ كل أنواع الشذوذ ، التى كان عليها أبناء سدوم ، فيما عدا إتيان المنكر هذا .

ومن ثم تركزت دعوته ، وتركز نشاطه ، حول محاربة هذه العادة السيئة . ولكنه كان يحاربها بنفس الأسلوب الإبراهيمى ، المهذب الرقيق ، الذى رأيناه من قبل :

— « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟

(1) AL – QUADIREE, ATAWOOLLAH ALI SARFARAZ KHAN JOOMMAL; Op. Cit., p. 202.

(٢) الإمام الأكبر ، دكتور عبد الحليم محمود : فى رحاب الكون ، مع الأنبياء والرسل — العدد (١٢٨) من (كتاب اليوم) — رمضان ١٣٩٧ — ١٥ أغسطس ١٩٧٧ ، ص ١١٠ .

إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون »(١) .

— « ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون »(٢) .

ولا تبدو (الأرستقراطية) فى معالجة لوط لقضاياه مع قومه ، كما تبدو فى موقفه من قومه ، عندما تمثل له الملائكة بشراً :

— « ولما جاءت رسلنا لوطا ، سىء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقال : هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال : ياقوم ، هؤلاء بناتى ، هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد؟ قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد . قال : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد . قالوا : يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك ، فأسر بأهلك ... » (٣).

وأما عن قصة سيدنا أيوب ، فهى قصة تعكس تلك (الأرستقراطية) ، ولكن بأسلوب مغاير .

فهو من ذرية سيد إسحق ، بن إبراهيم الخليل ، وزوجته من ذرية سيدنا يوسف بن يعقوب، فهو إذن من أنبياء بنى إسرائيل .

وقد « أتاه الله ثراء عريضا، ونعمة موفورة ، وكان ثراؤه ألوانا عدة » .

« ثم أخذ المال يتناقص ، وأخذت النعمة فى الزوال ، وضعفت الصحة شيئا فشيئا ، ثم جاءت لحظة من اللحظات ، وقد زال تماما ذلك كله » ، « وأصبح من الفقر، بحيث لا يجد ما يسد جوعه ، ومن المرض بحيث لا يستطيع أن يعمل .

(١) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٦٠ — ١٦٦ .
(٢) قرآن كريم : النمل — ٢٧ : ٥٤ ، ٥٥ .
(٣) قرآن كريم : هود — ١١ : ٧٧ — ٨١ .

وأشفق عليه فى المبدأ الأهل والأصدقاء ، من ذوى الثراء والنعمة ، ثم أخذ إشفاقهم يفتر ، وأخذ عطفهم يتلاشى » .

« وهذا الابتلاء ، إنما هو اختبار وامتحان من الله ، وهو عادة يتمخض عند الصادقين ، عن رضا من الله سبحانه ، يغمر الصابر المحتسب ، وعن رحمة من الله سبحانه ، تحيط بمن نجح فى الاختبار ، وتكون التجليات الإلهية ، والآلاء الربانية ، وتكون السعادة العظمى .

ولقد نجح أيوب فى الاختبار ، فكشف الله مابه من ضر »(١) .

وإلى القصة كلها ، يشير القرآن الكريم ، فى اختصار شديد ، ولكنه واف بالغرض ، بما يظهر تلك الأرستقراطية النبيلة :

— « وأيوب إذ نادى ربه ، أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له ، فكشفنا مابه من ضر ، وآتيناه أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا ، وذكرى للعابدين »(٢) .

وهى أرستقراطية، لأن فيها تعالياً وشموخاً ،واعتزازاً بالنفس ، ورفضاً للضعف ، مهما بلغ سوء الحال بالإنسان ، وهى نبيلة ، لأن فيها تواضعاً ساعة القوة والغنى ، وفيها — ساعتها — عطف على الفقير ، وبر بالقريب ، و . . . ، وفيها شموخ واعتزاز وترفع ، ساعة الضعف والحاجة ، رغم شدة البؤس .

وأسلوب هذه الأرستقراطية أسلوب مغاير ، للأسلوبين السابقين ، لأن المسألة هنا ليست دعوة إلى مبدأ يجب أن يعتنق ، مما يدعو إلى (تحرش) الآخرين به ، ولكنها مسألة تحرش ، يفرض نفسه على الإنسان من داخله ،

---

(١) الإمام الأكبر ، دكتور عبد الحليم محمود (مرجع سابق) ، ص ١١٩ — ١٢١ .
(٢) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٨٣ ، ٨٤ .

وهو يكون أشد وطأة على الإنسان ، من التحرش الذى يأتيه من الخارج ، ومع ذلك ، فإنه «لم يزد هذا الابتلاء لأيوب ، فى الجسم والأهل والولد ، إلا صبراً واحتسابا وحمداً ، وشكراً لله تعالى»(١) .

ولقد استطاع الخليل ابراهيم ، ونبى الله لوط ، أن يتركا ديار الكفر ، إلى خارج الحدود ، ولكن فى حالة سيدنا أيوب ، لم يكن هناك من مهرب ، سوى الصبر الجميل — وهو الأسلوب الذى لجأ إليه نبى الله أيوب .

وقد نشأ هذه النشأة المترفة الأرستقراطية كذلك سيدنا سليمان ، وسيدنا موسى ، إلا أننا نرجئ الحديث عنهما ، إلى الحديث عن أنبياء بنى إسرائيل ، لأن الأرستقراطية فى حياة بنى إسرائيل ، يكون لها منطق خاص .

انبياء نشأوا فى جو حرمان :

وليست النشأة فى جو حرمان بالنشأة المشينة ، كما يرى الأرستقراطيون من المفكرين ؛ وإنما قد تكون هذه النشأة ، سببا من أسباب الفخر والزهو ، إذا استطاع الإنسان أن يقهر الفقر ، وأن يشق طريق حياته رغمه .

إن الإنسان إذا استطاع أن يفعل ذلك ، فإنه يكون أكثر صلابة ، وأكثر قدرة على مواجهة تحديات الحياة ، والتصدى لها ، وما أكثر تحديات هذه الحياة .

فمثلما يوفر جو الترف لصاحبه ، الحرية والجرأة والشجاعة والإقدام ، يوفر جو الحرمان لصاحبه الصلابة ، والقدرة على مواجهة التحديات .

وفى هذا الجو الطاحن ، نشأ اثنان من أعظم مفكرى العروبة : طه حسين ،

(١) محمد اسماعيل ابراهيم : قصص الأنبياء والرسل (مرجع سابق)

وعباس محمود العقاد ، على سبيل المثال ، فوفر لهما هذه الصلابة ، ووفر لهما — بجانبها — مخالب قوية ، استطاعا بها أن يحطما الكثيرين . . واستطاعا أن يحطما — فى النهاية — الفقر نفسه . . فيحولاه إلى غنى وثراء .

نخريج مدرسة الفقر والحرمان هذه ، إما أن يخرج منها حطاماً ، لا يستطيع إلا أن يحنى رأسه للأغنياء والأقوياء ، ولا يستطيع أن يعيش إلا فى ركابهم ، وإما أن يخرج منها صلباً ، لا يكتفى بأن يرفع رأسه أمام الأغنياء والأقوياء ، بل يتعدى ذلك إلى تحديهم ، والتحرش بهم ، ومحاولة فرض قوته وسلطانه عليهم ، وبين النتيجتين — بطبيعة الحال — بون شاسع .

وممن نشأوا فى هذا الجو من الحرمان ، من الأنبياء ، كثيرون ، منهم على سبيل المثال : نوح ، وداد .

أما سيدنا نوح عليه السلام ، فقد فصل القرآن فى قصته ، تفصيلا قريباً من التفصيل الذى فصله فى قصة سيدنا ابراهيم .

وربما كان مرجع هذا التفصيل ، أنه يعد — بين الأنبياء — الطرف المقابل له ، من حيث النشأة ، ومن حيث مقابلة التحديات ، والتصدى لها ، ومن حيث النتائج أيضاً .

فقد كان سيدنا ابراهيم غنيا مترفا . . أرستقراطيا ، بينما كان سيدنا نوح فقيراً معدما ، يحصل على وسائل الحياة وأسبابها من كد يده . . من مهنة بسيطة يمتهنها ، هى النجارة فيما يقال .

وانعكس الغنى والترف على سلوك ابراهيم . . حلما وهدوءا ونبلا . . وانعكس الفقر على سلوك نوح . . عصبية وضيقا .

حتى الأسرة ، انعكس عليها هذا الفقر ، وذاك الغنى . . فقد كانت أسرة

ابراهيم أسرة مستقرة ، تنعم بالسعادة، التى تنعم بها الأسر الأرستقراطية ، فيما عدا تلك المؤامرات التى تقوم بها نساء تلك الأسر ، أما أسرة نوح ، فقد كانت أسرة يطحنها ذلك الفقر ، متمثلا فى التفكك الذى يسودها ، والمشاحنات التى تسود العلاقات بين أبنائها .

ولم يكن عبثا أن يكون أبناء ابراهيم الخليل جميعا من المؤمنين ، بل أن يكونوا من كبار المؤمنين ، وأن يناط بهم — لفرط إيمانهم — تبعة الدعوة إلى الله ، وحمل تبعة الرسالة .. وأن يكون ابن سيدنا نوح .. كافراً ، يشق عصا الطاعة على أبيه .

ولم يكن عبثا كذلك، أن ينعكس الغنى والفقر، على أسلوب الدعوة إلى الله .

فالخليل ابراهيم، يسلك إلى هذه الدعوة، أسلوب المناقشة الهادئة والعقل .. والحلم ، والصبر الجميل .. داعيا لأبيه وقومه بالهدى .. مقابلا عنفهم وغلظتهم برقة نبيلة .. وسيدنا نوح يسلك إلى هذه الدعوة أسلوبا فيه غلظة وعنف ، واستعجال بالتدمير والإزالة ، لمن يخالفونه .

ولقد كان هذا العنف فى الدعوة ، مما نفر قومه منه ، فزادوا كفراً وطغيانا ، وتحديا له .. حتى ابنه ، كان — كما سبق — من هؤلاء النافرين :

— « وقال : اركبوا فيها ، باسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه ، وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج ، فكان من المغرقين »(١) .

---

(١) قرآن كريم : هود — ١١ : ٤١ — ٤٣ .

وسيدنا نوح ، « هو ابن مالك بن متوشلح بن إدريس عليه السلام » ، « والمشهور أنه كان يسكن أرض الكوفة ، وهناك أرسله الله ، لينذر قومه عاقبة كفرهم ، وعبادتهم الأصنام » .

«و ضجر نوح من طغيان قومه وعنادهم المستمر ، فدعا عليهم ، بعد أن يئس من هدايتهم » .

« وتتواتر الأخبار ، بأنه قبل أن يوجد قوم نوح ، عاش خمسة رجال صالحين، من أجداد قوم نوح، كانوا موضع إجلال الناس،وهم ود،وسواع، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، وبعد موتهم ، صنع لهم من عاصروهم تماثيل ، لإحياء ذكراهم ، ثم خلف من بعدهم ذرية من الأبناء وأبناء الأبناء ، ممن نسوا حقيقة أمر هؤلاء الأجداد ، وأخذت الأساطير والخرافة تنسج حول أصحاب هذه التماثيل »(١).

وكانت دعوة نوح العنيفة إلى عبادة الله ، التى يبدو أنها لم تقابل إلا بعناد عنيف أيضا .

وإلى هذا العنف فى (فعل) نوح ، و (رد فعل) قومه ، يشير القرآن الكريم ، فى أكثر من موضع ، عندما ترد هذه القصة :

— « واتل عليهم نبأ نوح ، إذ قال لقومه : يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى ، وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم ، فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين. فكذبوه ، فنجيناه ومن معه فى الفلك ، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين

---

(١) محمد اسماعيل إبراهيم : قصص الأنبياء والرسل (مرجع سابق) ، ص ٣٨ — ٤١ .

كذبوا بآياتنا ، فانظر : كيف كان عاقبة المنذرين ؟ »(١) .

— « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين . قال : رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور ، فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون »(٢) .

ولنتتبع هذا (الحوار) الموجز ، الذى يعرض هذا (العنف المتبادل) ، بين الداعى والمدعوين :

— « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال : الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . قال : يا قوم . . . ولا أقول لكم : عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم : لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى نفوسهم ، إنى إذن لمن الظالمين . قالوا : يا نوح ، قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . . وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون »(٣) .

ثم لنتتبع — بعد ذلك — خاتمة هذا الحوار ، كما يرويها نوح لربه :

---

(١) قرآن كريم : يونس — ١٠ : ٧١ — ٧٣ .
(٢) قرآن كريم : المؤمنون — ٢٣ : ٢٣ — ٢٧ .
(٣) قرآن كريم : هود — ١١ : ٢٥ — ٣٦ .

— « قال : رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً . فلم يزدهم دعائى إلا فراراً . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى أعلنت لهم، وأسررت لهم إسراراً . . . . قال نوح : رب إنهم عصونى ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا : لاتذرن آلهتكم ، ولاتذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ، ولاتزد الظالمين إلا ضلالا . . . وقال نوح : رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لى ولوالدى، ولمن دخل بيتى مؤمنا،وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً »(١).

أما سيدنا داود ، فهو من أنبياء بنى إسرائيل ، ومع ذلك نورده هنا ، لتأكيد ما نقول به .

وقد كان داود راعى غنم ، ينحدر « من سبط يهوذا ، الابن الأكبر لإسرائيل (يعقوب) » ، حتى « منحه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ثم أورثه النبوة ، عقب وفاة صموئيل ، وأنزل عليه الزبور ، وجعله خليفة فى الأرض » . « وقد استمرت فترة حكمه نحو أربعين عاما ، بدأت فى سنه ١٠١٠ ق . م . ، إلى سنة ٩٧٠ ق . م »(٢) .

ورغم أن لأنبياء بنى إسرائيل طبيعتهم الخاصة ، نتيجة للطبيعة الخاصة لبنى إسرائيل أنفسهم ، الذين أرسل إليهم هؤلاء الأنبياء . . . ومن أجل ذلك ، سنفرد لهم الفصل التالى ، فصلا خاصا بهم ، كما سنخصص لهم - فيما

---

(١) قرآن كريم : نوح — ٧١ : ٥ — ٢٨ .

(٢) خليل طاهر : الأديان والإنسان ، منذ مهبط آدم ، حتى : اليهودية — المسيحية — الإسلام — قدم له وراجعه : فضيلة الإمام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود — دار الفكر والفن — ١٩٧٦ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

بعد بإذن الله — كتاباً خاصاً من كتب هذه السلسلة — رغم ذلك كله ، فإننا يمكن أن نتناول حياته ، لنرى تنشئته ، وأثر هذه التنشئة على أسلوبه فى الدعوة إلى الله .

نشأ سيدنا داود - كما سبق - راعى غنم ، ولكن الترتيب الإلهى دفع به إلى قمة ، لحكمة رآها الله سبحانه . فقد كان بنو إسرائيل يحكمهم قضاة ، من سنة ١١٨٠ إلى سنة ١٠٢٠ ق . م . ، وكان آخر هؤلاء القضاة صموئيل . ولما تقدمت به السن ، طلب إليه بنو إسرائيل أن يختار لهم ملكا ، كالشعوب المحيطة بهم ، وفى سنة ١٠٢٠ ق.م ، جمعهم ، و«أشار لهم إلى رجل طويل ، لا يصل أحدهم لكتفه»(١) ، فكان الملك المختار هو شاول ، الذى كان عهده شؤماً على بنى إسرائيل ، فقد سلط الله عليهم فى عهده العمالقة ، العرب الكنعانيين، وأظهر داود، فى الحرب مع أعداء بنى إسرائيل ، بطولة ، حتى أنه تمكن من قتل جوليات الفلسطينى ، ألد أعداء اليهود ، فى الحرب ، فكافأه شاول بأن زوجه ابنته . وبدأت الأضواء تتسلط — من هنا — على داود ، فبدأ اليهود يتطلعون إليه ، ليتخذوه ملكا ، يقود الشعب الإسرائيلى بشجاعته ، ويقضى بها على خصومه .

وتمكن داود بالفعل ، من القضاء على أعدائه فى داخل البلاد ، كما قضى على أعدائه خارج الحدود ، ووسع مملكة إسرائيل .

ولا تحدثنا الأخبار كثيراً عن داود الراعى ، وإنما هى تحدثنا عن داود الملك . . أو النبى .

ولكننا فى تصرفات داود الملك أو النبى ، رأينا داود الراعى ، كما

---

(١) محمد صبيح : المعتدون اليهود ، من أيام (موسى) إلى أيام (ديان) — مطبعة دار العالم العربى — ١٩٦٨ ، ص ٥٢ .

رأينا بصمة النشاة من قبل فى حياة نوح ، وفى حياة الخليل إبراهيم ، وابن أخيه لوط .

ولم يظهر داود منذ البداية بطولة ، أو عملا خارقاً ، كان يستحق من أجله أن يدفع به إلى الصفوف الأولى من ميدان القتال ، ليقتل عدواً ، فشل الفرسان فى قتله ، مما يدل على أن هذه البطولة ذاتها عمل خارق فى حياته ، خططت له الإرادة الإلهية ونفذته ، ومما يدل على أنه كان - قبل التكليف - رجلا صالحا ... وكفى ، ومن أجل صلاحه ، استحق هذا التكريم ، الذى كرمه به ربه ، وسط قوم ، لم يعرف عنهم ، كما يفهم من كتبهم ذاتها ، على نحو ما سنرى فى الفصل التالى بإذن الله ، سوى العدوان والغدر ، ومحاربة الحق ، والفساد والإفساد ، « وذلك عن طبيعة تأصلت فيهم ، وصارت ميراثا ، يرثه الأبناء عن الآباء ، ميراث دم ونسب ، إلى يوم الدين »(١) ، وأدت — أى هذه الطبيعة — إلى أنهم صاروا يعيشون « مشتتين هائمين على وجوههم ، فى مختلف بقاع الأرض ، حتى يومنا هذا »(٢) — قبل أن يستغلوا جهل العرب وضعفهم ، وبعدهم عن الإسلام ، فى خلق وطن قومى لهم .. فى إسرائيل ، صاروا — من خلاله — ومن خلال تمكنهم من السيطرة على المجتمعات الغربية — يتحدثون عن مبادئهم ، ونزعة العنف والحقد الدفينة فى نفوسهم ، « جهراً وعلى استخذاء فى أول الأمر ، ثم استعلاء بعد ذلك »(٣) .

---

(١) عبد الكريم الخطيب : اليهود فى القرآن — الطبعة الأولى — دار الشروق — ١٩٧٤ ، ص ١٢ .

(٢) الدكتور على عبد الواحد وافى : اليهودية واليهود ، بحث فى ديانة اليهود وتاريخهم ، ونظامهم الاجتماعى والاقتصادى — مكتبة غريب ، ص ١٠٧ .

(٣) دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ، والفكر الفرويدى ، أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سجمند فرويد — الطبعة الأولى — عالم الكتب — ١٩٧٠ ، ص ١٤٦ .

ولم يكن غريباً أن تتكرر مثل هذه الألفاظ والعبارات ، الموجهة إلى اليهود ، فى العهد القديم ، كتاب اليهود المقدس ، بشكل يلفت النظر :

— « لا تكونوا كآبائكم ، الذين ناداهم الأنبياء الأولون ، قائلين : هكذا قال رب الجنود : ارجعوا عن طرقكم الشريرة ، وعن أعمالكم الشريرة ، فلم يسمعوا ولم يصغوا إلى ، يقول رب الجنود »(١) .

— « من أيام آبائكم حدتم عن فرائضى ، ولم تحفظوها »(٢) .

وقد كان داود واحداً من هؤلاء الأنبياء ، الذين لم يصغ إليهم بنو إسرائيل .

وقد رأينا — فيما قبل — أن الأضواء بدأت تتسلط عليه ، منذ تعرض بنو إسرائيل ، لغزو جيرانهم ، « من العمالقة والآراميين والفلسطينيين » ، « وفى نهاية هذه المدة ، حكمهم طالوت (شاول) ، ودخل فى حروب ضد الفلسطينيين ، الذين انتصروا على بنى إسرائيل ، واستقروا فى بعض أراضيهم » .

« ولما قامت الحرب بين الفلسطينيين وبين طالوت ، ملك بنى إسرائيل ، كان على رأس الجيش الفلسطينى طاغية من أكبر الوثنيين ، هو جالوت ، المشهور ببأسه وقوته ، وقد وقف فى ميدان القتال ، يتحدى أبطال جيش طالوت ، طالبا منهم النزال ، والكل يهابه . وكان من بين جيش طالوت ، شاب صغير ، يملؤه الإيمان والحماس ، ولم يكن جنديا مقاتلا » ، « وذلك الشاب هو داود » ، الذى « برز لجالوت ، لا يحمل من أدوات الحرب سوى عصاه ومقلاعه وبعض الأحجار ، فاستخف به جالوت » ، « ولكن داود سدد إليه حجراً من مقلاعه ، فشج رأسه ، ثم أتبعه بآخر ، حتى سقط جالوت صريعا ، وانتصر بنو إسرائيل على عدوهم ، واستردوا تابوتهم » .

---

(١) العهد القديم : سفر زكريا — ٣٨ : الإصحاح الأول : ٤ .
(٢) العهد القديم : سفر ملاخى — ٣٩ : الإصحاح الثالث : ٧ .

كما رأينا من قبل، ان «داود» «لم يكن» «جنديا ، وإنما كان راعى غنم، من عامة الشعب ، ولم تكن له خبرة فى القتال أو الحرب ، وإنما أرسله أبوه، ليكون مرافقا لأخويه ، اللذين اشتركا فى القتال مع طالوت ، لخدمتهما ، ولم يكن له من قوة ، غير إيمانه العميق ، بالله تعالى »(١) .

ولا تتوفر لنا قصص كثيرة ، عن راعى الغنم هذا ، الذى صار نبيا ، وآتاه الله الملك ، ولكن القصص القليلة المتوفرة ، تدلنا على أنه كان يتصرف تصرف راعى غنم ، ليس فيه ذلك (النبل) ، وتلك (الأرستقراطية) ، اللذين رأيناهما فى تصرف الخليل ابراهيم ، أو ابن أخيه لوط — مثلا ، رغم أن أحدهما لم يصل إلى الملك .

وفى تصورى أنه لولا النبوة ، ماشبع هذا الراعى أبداً ، ولكن النبوة كانت تعصمه دائما ، فيعود إلى الله ، ويشبع بها ، لا بغيرها ، مما يشبع الرعاة والسوقة ، عندما يتولون سلطة ، أو يتمكنون من رقاب الناس ومن أموالهم . ومن ثم وصف كثيراً فى كتاب الله ، بأنه (أواب) — أى تائب مستغفر .. بعد انحراف يحس بأنه انحرفه ... عن الطريق .

وقصة واحدة ، يوردها القرآن الكريم ، كما يوردها العهد القديم ، ربما تدل على صدق ما نقول ، وهى قصة النعاج .

ويعرض القرآن الكريم للقصة ، على النحو التالى :

— « اصبر على مايقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ، إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة ، كل له أواب . وشددنا ملكه ، وآتيناه فصل الخطاب وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ، ففزع منهم ، قالوا : لا تخف ،

---

(١) محمد اسماعيل ابراهيم : قصص الأنبياء والرسل (مرجع سابق) ، ص١٠٣ — ١٠٥ .

خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخى ، له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب. قال : لقد ظلمك ، بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم ، وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى ، وحسن مآب »(١) .

ثم يختم القرآن الكريم القصة ، بالنصيحة لهذا النبى .. الملك .. راعى الغنم ، وكأنما هو يذكره بفضل الله عليه :

— « يا داود ، إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ، بما نسوا يوم الحساب »(٢) .

ويوضح الشهيد سيد قطب ، قصة هذه النعاج ، بقوله : « فى قصة داود فى القرآن ، إشارة إلى فتنته بامرأة — مع كثرة نسائه — فأرسل الله إليه ملكين يتخاصمان عنده » ، « وعرف داود أنها الفتنة ، (فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب) »(٣) .

وأسلوب راعى الغنم ، الذى يريد أن يستزيد دائما من الغنم ، ومن الأموال ، ومن الأولاد ، ومن النساء . . . مغاير تمام المغايرة ، لأسلوب الأرستقراطى ، ابراهيم الخليل ... الذى يضحى ، حتى بابنه ، الذى رزقه الله به ، بعد أن بلغ من الكبر عتيا .

---

(١) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ١٧ — ٢٥ .
(٢) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ٢٦ .
(٣) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن (مرجع سابق) ، ص ١٧٢ — هامش .

ولكنهم جميعا أنبياء :

ولو لم يكن داود نبيا ، لأطغاه المال والسلطان ، ولما (خر راكعاً وأناب) ، ولكن نبوته ، أو (طاقته الروحية) الغالبة عليه ، كانت هي التي عادت به . . إلى طريق الله ، ولم يعاند أو يكابر ، كما فعل قارون من قبله .

وكان قارون هذا عماً لموسى ، وكان يعد « من أكبر علماء اليهود ، وأفقههم بعد موسى وهارون ، منحه الله مالا وفيراً ، وثروة طائلة » ، « ورغم كل ذلك ، كان منافقاً وطاغية ، وعدواً لموسى ورسالته ، يحيك ضده الدسائس ، ويضطهد أتباعه ، ويقف في وجه رسالته ، ولا سبب لذلك ، إلا أن موسى قد فضل عليه أخاه هارون ، وقلده رياسة هيكل المعبد ، فحقد عليه »(١) .

وبدلا من أن يشكر قارون ربه ، على مارزقه من النعمة ، « تمرد قارون على ربه ، واعتقد أنه يستطيع بالمال أن يشترى الآخرة ، شراءه للدنيا . . . حتى خسف الله به الأرض ، كما يعرض القرآن الكريم :

— « إن قارون كان من قوم موسى ، فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه : لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى . . . فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين »(٢) .

---

(١) خليل طاهر (مرجع سابق) ، ص ١٨٢ .
(٢) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ٧٦ — ٨١ .

وما ورد فى القرآن الكريم،عن (الحياة الخاصة) لبعض الأنبياء ، إنما ورد مصادفة، لتحقيق هدف معين، أراده الله سبحانه ، لأن القرآن الكريم لم يورد هذه القصص ، بوصفه كتاب تاريخ ، أو كتاب سير ، وإنما أوردها لنأخذ منها العظة والعبرة وحدهما . ومن ثم نجد قصص معظم الأنبياء والرسل ،الواردة فيه ، لا تتعرض لهذه (الحياة الخاصة) لكل منهم ، وإنما هى تعرض (المرض الاجتماعى) ، الذى أرسل كل منهم لعلاجه ، ثم إيمان القلة به ،وتصدى الأكثرية له . . ثم الصدام بين الفريقين ، وانتصار الحق على الباطل فى النهاية .

وما ورد خاصا ببعض الأنبياء ، عن (تفصيلات) حياتهم ، يدل على ما أكدناه فى الفصل الأول ، وما أكده القرآن الكريم فى كل مناسبة ، من أنهم (بشر)(١) .

والبشرية مجموعة من المواهب والملكات ، بعضها يرفع بالإنسان إلى أعلى ، وبعضها يهبط به إلى حضيض، ومن مجموع مؤشرات الصعود والهبوط، تتكون (الشخصية) الإنسانية ، فتكون أقرب الى الكمال . . أو أقرب إلى الانحطاط .

وقد كان هؤلاء الأنبياء . . البشر ، أقرب إلى الكمال،وأبعد عن الهبوط.

وقصة نعاج سيدنا داود ، مؤشر من المؤشرات ، الدالة على (بشرية) هذا النبى ، وعلى إمكانية هبوط هذه البشرية به ، لولا استغفاره ، وأوبته إلى الله ، اللذين كانا (ينتشلانه) من الحضيض . . إلى الأفق الأرحب ، فق الكمال .

---

(١) ارجع الى ص ٣٣ وما بعدها من الكتاب .

وفى حياة كل نبى من الأنبياء، قصة قريبة من قصة هذه النعاج، لاتختلف عنها إلا فى موضوع هذا (الهبوط) ، لا فى جوهره .

ففى حياة سيدنا يعقوب ، الذى ينسب إليه بنو إسرائيل ، نجد تفضيل ابن على ابن ، تفضيلا — مهما كان منطقه وسببه — يؤدى — فى النهاية — إلى ما كان بين الإخوة من حقد ، وصل إلى حد التآمر على القتل، ومحاولته، بل وتنفيذه ، لولا لطف الله بعبده ونبيه ، يوسف .

بل إن هذا التفضيل ، قد ورثه سيدنا يعقوب عن أبيه، فقد كان يعقوب توأما لشقيقه (عيصو) ، الذى كان « أثيراً عند أبيه ، فأحبه حبا جما، لأنه فى نظره ابنه البكر ، بينما كان يعقوب ذا حظوة عند أمه »(١) .

وسيدنا موسى ، قتل أحد الأبرياء من المصريين ، مناصرة منه لأحد أبناء جنسه من بنى إسرائيل .

وسيدنا داود — كما سبق — واضح الميل إلى النساء .

بل إن سيدنا ابراهيم — أبا الأنبياء — ذاته . . قد انحاز إلى (الحرة)، وأرضى لها ما أرادته من تآمر على (الجارية) وأبنائها ، ناسيا أن الجارية — بعد الزواج منه — صارت من مسئولياته ، كالحرة ، سواء بسواء ، بل إنها صارت تفضلها ، بما تحتضن من أبناء .

وسيدنا عيسى ، رغم نزعته الروحية الخالصة ، ورغم ما اشتهر به من رحمة وبر وعطف . . نراه يضيق ببنى إسرائيل ، الذين أرسل إليهم ، لا إلى غيرهم ، ضيقا يخرجه عن حلمه ورحمته وعطفه ، فى مثل قوله — فيما تورده الأناجيل — موجها خطابه إلى تلاميذه الاثنى عشر :

---

(١) محمد اسماعيل إبراهيم : قصص الأنبياء والرسل (مرجع سابق) ، ص ٧٢

— « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(١) .

وفى مثل قوله ، موجها خطابه إلى الفريسيين والكتبة اليهود :

— « وويل لكم أنتم أيها الناموسيون ، لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة الحمل ، وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم . ويل لكم ، لأنكم تبنون قبور الأنبياء ، وآباؤكم قتلوهم »(٢) « فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء . فاملأوا أنتم مكيال آبائكم . أيها الحيات أولاد الأفاعى : كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ »(٣) .

ولولا هذا (الخط الساخن) ، الذى رأيناه فى الفصل الأول(٤) ، يربط بين هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، وبين الله سبحانه ، لما استطاعوا الصعود ... من هبوط .

أو لولا رحمة الله بهم ، لما استطاعوا هذا الصعود ، « فلكل شخص قابلية فطرية للإيمان ، وقدرة اندفاعية طبيعية على الشك ، إذ جميع البشر من جوهر واحد » ، و« إن النبيين أنفسهم ، من ذات الطينة ، التى تكون منها سائر الناس ، فهم أيضا أشخاص ، وأشخاص لا أكثر »(٥) .

ورحمة الله هذه ، لا تقتصر على الأنبياء والمرسلين وحدهم ، ولكنها تتسع ، لتشمل كل بنى آدم ، لأن كل بنى آدم يستطيعون أن يصعدوا .. مثلما يستطيعون الهبوط .

---

(١) العهد الجديد : إنجيل متى — ١ : الاصحاح العاشر : ٥ ، ٦ .
(٢) العهد الجديد : إنجيل لوقا — ٣ : الاصحاح الحادى عشر : ٤٦ ، ٤٧ .
(٣) العهد الجديد : إنجيل متى — ١ : الإصحاح ٢٣ : ٣١ — ٣٣ .
(٤) ارجع إلى ص ٢٥ ، ٢٦ من الكتاب .
(٥) الدكتور محمد عزيز الحبابى : الشخصانية الإسلامية — من (مكتبة الدراسات الفلسفية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩ ، ص ١٦ .

وهذه هى القيمة الحقيقية — فى نظرى — لدراسة سير هؤلاء الأنبياء .

ومن ثم يكون ذلك الاختلاف ، الذى رأيناه فى نشأة هؤلاء الأنبياء ، وفى الجو الذى ترعرع فيه كل منهم ، والصفات النفسية والانفعالية والمزاجية والعقلية والاجتماعية لكل منهم ، نتيجة لهذا الجو الذى نشأوا فيه - يكون ذلك كله ، لحكمة إلهية عليا ، هى أن يبين للناس جميعاً ، أن بمقدور كل منهم أن يكون نبياً ، أو شبه نبى ، لأن الأنبياء لا يزيدون على أن يكونوا (نماذج بشرية فاضلة) ، يجب أن يتخذها الإنسان مثلا أعلى فى حياته ، يسعى للوصول إليه .

وليتخذ الإنسان بعد ذلك ، من هذه النماذج البشرية ، النموذج الذى يروق له ، والذى يراه متفقا مع نفسيته ومواهبه ، وهو — بالسير فى طريقه ، وعلى خطاه — واصل إلى الله ، لا محالة .

وقد تجمعت كل هذه المواهب ، أو (النماذج البشرية الفاضلة) — على نحو ما سنرى فى الفصل الأخير من هذا الكتاب — فى خاتم الأنبياء ، محمد ابن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان بحق — نموذج النماذج البشرية الفاضلة .

وشعوب متباينة ... فاسدة العقيدة :

ومثلما كان الأنبياء عليهم السلام ، نماذج بشرية فاضلة ، ولكنها متباينة فى كل شىء ، سوى الإحساس الكامل بالعبودية لله — كانت الشعوب التى أرسلوا إليها ، متباينة فى كل شىء ، إلا أنها كانت تشترك فى لون من ألوان الفساد أو أكثر ، نتج عن الشرك بالله ، أو عن فساد العقيدة .

وكان هذا الفساد ، الذى ظهر هنا ، مختلفا عن ذلك الفساد ، الذى ظهر

هناك ، ومن أجل هذا الفساد أو ذاك . . أرسل الله سبحانه رسوله ، كما رأينا فى كتابنا الأول من السلسلة(١) .

كان الفساد الذى ظهر فى عاد ، نتيجة لفساد العقيدة ، هو العدوان والبطش ، ومن ثم اتجه إليهم صالح قائلا :

— « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ؟ »(٢) .

وكان الفساد ، الذى ظهر فى أصحاب الأيكة ، لفساد العقيدة ، لونا مغايراً من ألوان العدوان والبطش ، هو العدوان على النفس ، لا على الغير ، كما كان عدوان عاد ، متمثلا فى الغش والتنافر ، والعمل على جمع المال بكل سبيل ، ومن ثم اتجه إليهم شعيب قائلا :

— «أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »(٣) .

وكان الفساد ، الذى ظهر فى مصر القديمة ، نتيجة لفساد العقيدة ، هو تأليه الفرد الحاكم ، وهو لون من ألوان الرضا بالعدوان على النفس، يعرضه القرآن الكريم على لسان فرعون مصر :

— « وقال فرعون : يأيها الملأ ، ما علمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين ، فاجعل لى صرحا ، لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٦٢ وما بعدها .
(٢) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٢٨ — ١٣٠ .
(٣) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٨١ — ١٨٣ .

أنهم إلينا لا يرجعون »(١) .

وكان الفساد ، الذى ظهر فى قوم لوط ، نتيجة لفساد العقيدة ، هو (اللواط) ، أو (الشذوذ الجنسى) ، الذى يمكن أن يؤدى إلى تحلل المجتمع ، تمهيداً لفنائه ، ومن ثم كان إنكار لوط على قومه :

— « أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون »(٢) .

— « أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ماخلق لكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون »(٣) .

فهى شعوب متباينة فى كل شىء ، لا يجمع بينها سوى جامع واحد ، هو فساد العقيدة ، وقد نتج عن فساد العقيدة هذا ، مرض اجتماعى أو أكثر ، ومن ثم كان التباين بينها ، رغم أن مصدر عللها جميعا واحد، هو هذا الفساد فى العقيدة .

والتباين بين الشعوب هنا ، صورة للتباين الذى رأيناه من قبل بين الأنبياء ، إلا أنه تباين رأيناه محدوداً ، بسبب تلك (اللغة المشتركة) ، التى رأيناها بين جميع الأنبياء ، وهى لغة الدعوة إلى الله ، وهداية القطعان البشرية الضالة .. إليه .

---

(١) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) قرآن كريم : النمل — ٢٧ : ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١٦٥ ، ١٦٦ .

وتسير القافلة الانسانية .. الى الأمام :

ويقع صدام، كان لابد أن يقع ، بين دعاة الصعود ، والترفع ، والارتباط بالملأ الأعلى . . وبين دعاة الهبوط والانحطاط ، والارتباط بالحياة الدنيا ، وبالجسد المشدود إلى هذه الحياة .

ويكون العدوان فى هذا الصدام — كما سبق — من جانب دعاة الهبوط والانحطاط ، الذين لا يكتفون بأن يعيشوا وحدهم فى (الوحل) ، بل يصرون على أن يأخذوا كل من حولهم إلى هذا الوحل ، ليعيشوا معهم فيه .

ويكون تجنب الصدام ، والدعوة الهادئة الوديعة الرقيقة ، سمة الداعين إلى الصعود ، والمتمسكين به ، ومع ذلك يصر الهابطون على ألا يتركوا أحداً يصعد .

ويكون الكذب والافتراء ، من الهابطين ، ثم يكون التحرش ، ثم تكون . . الحرب . فالأعصاب الموتورة لا تهدأ ، حتى تقطع .

ومن ثم يكون إعلان الموتورين الحرب ، بداية النهاية بالنسبة لهم ، لأن الأعصاب الموتورة ، يمكن أن تحدث جلبة وضجيجاً ، ولكنها لا يمكن أن تحرز نصراً .

بل إن الإنسان ، يستطيع أن يجزم ، بأن اندحار الهابطين ، يكون بأيدى الهابطين أنفسهم ، قبل أن يكون بأيدى الصاعدين .

ذلك أن مجتمع الهابطين ، يحمل بين دفتيه ، عوامل فنائه واندحاره ، بينما يحمل مجتمع الصاعدين بين دفتيه ، عوامل بقائه ونمائه .

« وهكذا يكون الصراع بين الحق والباطل ، بين المؤمنين والكفار ، بين حزب الله وحزب الشيطان ، صراعاً بين ديناميكيتين متناقضتين ، من ديناميكيات الحياة فى هذا العالم ، تؤدى إحداهما بمجتمعها إلى القوة ، نتيجة

لما يسوده من حب وإخاء وتسامح وإيثار ، وتضحية بالنفس والنفيس ، فى سبيل الجماعة، وفى سبيل المبادئ والمثل العليا ، بينما تؤدى الأخرى بمجتمعها، إلى الضعف والتفكك والتحلل ، ثم الانهيار ، نتيجة لما يسوده من تباغض وتحاسد وأثرة ، وتصارع على متاع الحياة الدنيا ، يحاول كل فرد أن يأخذ منه ، أكثر ما يستطيع أخذه ، بحق وبغير حق .

ويكون الصراع بين الديناميكيتين هو الشرارة ، التى بموجبها تبدأ الحياة، للصالح من نظم الحياة ، وقد صقلته الحياة ، فجعلته أصلب عوداً ، وأقدر على مواجهة أحداث الأيام . . . كما تبدأ النهاية للفاسد من تلك النظم ، بعد أن حطمته الحياة ، التى تشبث بها أتباعه ، فأفسدوا دينهم ودنياهم »(١) .

وبانتصار حركة الصعود الإنسانى ، على هـــذا النحو ، تستمر القافلة الإنسانية فى سيرها ، إلى أمام ، بعد أن أرادت لها حركة الهبوط، أن تتردى فى سيرها .

وبانتصار حركة الصعود الإنسانى ، تظل الإنسانية فى صعودها ، تتقدم وتتقدم ، وتتحقق كرامة الإنسان ، بعد أن يراد لهذه الكرامة ، على يد حركة الهبوط ، أن تذل وتهون، إما لسلطان جائر، أو لمادية طاغية ، أو لهوى وضلال ، نابعين من داخل النفس .

وتتدخل إرادة الله سبحانه ، فى تحقيق انتصار حركة الصعود، واندحار حركة الهبوط ، تدخلا قد يكون غير مباشر ، فى توجيهه — سبحانه — هذه الحياة وتلك ، إلى نهايتها المحتومة ، وقد يكون مباشراً ، بتسليط (قوى

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : في التربية الإسلامية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

الطبيعة) المختلفة ، لتتدخل فى جانب المؤمنين به ، وضد الكفار ، والصادين عن سبيله.

وهو تدخل ، هدفه أن يعود الإنسان ، كما أراد له ربه ، يوم خلقه ، خليفة لله فى الأرض ، قادراً على أن ينشر فيها خيراً ، بعد أن جرفه الشيطان بعيدا عن الطريق الربانى ، ينشر خراباً :

— « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون »(١) .

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٣٠.

الفصل الثالث

أنبياء بنى إسرائيل

تقـــديم :

يحلو للدراسات ، التى تتناول موضوع (الأنبياء والرسل) ، أن تتناول القضية ، متتبعة (شجرة الأنبياء) ، بدءاً بآدم ، أبى البشر ، ومروراً بإدريس ونوح ، ثم أبى الأنبياء ، إبراهيم الخليل .

ثم يحلو لهذه الدراسات بعد ذلك ، أن تفرع شجرة النبوة ، إلى أنبياء بنى إسرائيل ، وأنبياء العرب .

ومن أنبياء العرب ، من هم من سلالة نوح ، كهود وصالح . ومنهم من هم من سلالة إبراهيم ، بدءاً بابن أخيه لوط ، وانتهاء بسلالة ابنه اسماعيل ، كشعيب .

وأنبياء بنى إسرائيل ، يبدءون بسيدنا اسحق ، ابن سيدنا إبراهيم ، ويتدرجون - بعد إسحق - إلى يعقوب ، الذى نسب إليه بنو إسرائيل ، ثم ابنه يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم إلياس واليسع ، وداود وابنه سليمان ، وكذلك أيوب وذى الكفل ويونس ، وزكريا ويحيى ، وعيسى ابن مريم .

ونحن عندما نفرد لأنبياء بنى إسرائيل فصلا ، لا نفعل ذلك تقليداً للدراسات السابقة ، أو سيراً على خطاها ، وإنما نفعله جرياً على الخط الذى خططناه لهذه الدراسة ، وهو خط دراستنا للأنبياء وشعوبهم ، من خلال (المرض الاجتماعى) الذى ظهر فى مجتمع ، فاستدعى إرسال نبى .

ويكاد المرض الاجتماعى ، الذى ظهر فى بنى إسرائيل ، منذ سيدنا يعقوب ، وحتى اليوم ،أن يكون هو هو المرض، لا هم يريدون أن يبرءوا منه ، ولا يفلح فى علاجهم نبى ، وذلك لأنه مرض يعود إلى أصلهم ، وتركيبتهم ، وتكوينهم النفسى ، قبل أن يعود إلى شىء آخر ، ومن هنا كان من الحكمة أن نبدأ قصتهم .. منذ بدايتها(١).

اصل بنى اسرائيـــل :

ينسب بنو إسرائيل ، إلى سيدنا يعقوب ، الذى سمى (إسرائيل) ، بعد عودته من (فدان أرام) ، على حد تعبير التوراة ، حيث يقول (سفر التكوين) :

— « وظهر الله ليعقوب أيضاً ، حين جاء من فدان أرام ،وباركه .وقال له الله : اسمك يعقوب . لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل يكون اسمك إسرائيل . فدعا اسمه إسرائيل .وقال له الله : أنا الله القدير . أثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق ، لك أعطيها . ولنسلك من بعدك أعطى الأرض »(٢).

ويعقوب — أو إسرائيل — الذى ينسب إليه بنو إسرائيل ، هو ابن سيدنا إسحق ، وقد كان سيدنا إسحق يحب أخاه التوأم عيسو ، ولكن سيدنا يعقوب استطاع خداع أبيه ، على حد تعبير التوراة ، ليحصل على بركته ،

---

(١) لبنى إسرائيل كتاب خاص من كتب هذه السلسلة بإذن الله ، سنتناول فيه ما نوجزه هنا ،تفصيلا ، ونكتفى هنا — لأجل ذلك — بما يساهم فى توضيح الغرض من الدراسة ،التى يدور حولها هذا الكتاب السادس من السلسلة .

(٢) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح الخامس والثلاثون :٩ — ١٢ .

فأعطاها إياها ، وهو يظنه أخاه عيسو(١) .

وسيدنا إسحق ، هو ابن سيدنا ابراهيم الخليل ، أبى الأنبياء ، من السيدة سارة ، ومن أجل ذلك يسميه بنو إسرائيل (ابن الحرة) ، ويسمون أنفسهم (بأبناء الحرة) ، بينما يسمون سيدنا اسماعيل (ابن الجارية) .

وكان سيدنا يعقوب — أو إسرائيل — يسكن فى فلسطين ، وفيها حدثت قصة سيدنا يوسف — ابنه — مع إخوته ، وعلى أساسها بيع سيدنا يوسف إلى عزيز مصر ، ثم صار — من خلال حلمه المشهور — أميناً على خزائن مصر .

ويسهب القرآن الكريم فى هذه القصة ، فى سورة عنونت باسم بطل القصة (يوسف) ، وفيها يقول سبحانه وتعالى ، متعلقا بهذا الفصل من فصول القصة :

— « وقال الملك : ائتونى به ، أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين »(٢) .

ثم تتم السورة فصول القصة ، قصة يوسف الصديق ، أو قصة بنى إسرائيل جميعاً ، بقصة المجاعة التى أصابت المنطقة ، فى السنين السبع العجاف ، التى رآها يوسف فى حلمه ، والتى كان قد أعد لها فى السنين السبع السابقة — السمان — عندما تولى خزائن مصر . . حيث ذهب إخوة يوسف ، ليحصلوا

---

(١) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح السابع والعشرون : ٣٠ — ٣٨ .
(٢) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ٥٤ — ٥٦ .

على نصيبهم من الخزانة ، فتعرف عليهم ، ورتب أمر الحصول على أخيه الشقيق ، ثم رتب — مع رجاله — أمر سرقة صواع الملك ، الذى بموجبه أبقى أخاه الشقيق عنده ، ثم تعرفوا عليه ، ثم أرسل قميصه إلى أبيه ، فارتد بصيراً ، وعادوا بأبيهم إلى يوسف :

— « قالوا : أإنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين . قال : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصى هذا ، فألقوه على وجه أبى ، يأت بصيراً ، وأتونى بأهلكم أجمعين »(١) .

وجاء يعقوب إلى مصر ، وأقام هو وأبناؤه فى مصر ، فى منزلة معززة مكرمة :

— « فلما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم »(٢) .

وعاش بنو إسرائيل — أو أبناء يعقوب — فى مصر ، « فى عهد الهكسوس ، بعد سنة ١٨٥٠ ق . م » ، « فأثروا ، وكثر عددهم ، وتقلدوا أرفع المناصب »(٣) .

---

(١) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ٩٠ — ٩٣ .
(٢) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ٩٩ ، ١٠٠ .
(٣) خليل طاهر (مرجع سابق) ، ص ١٦٥ .

وهكذا فتحت مصر لبنى إسرائيل صدرها ، كما فتحت — وتفتح — صدرها لكل أجنبى ، فهى معطاءة كريمة طوال تاريخها ، وبدلا من أن يعيش بنو إسرائيل فى مصر ، كالمصريين ، وبدلا من أن يتصرفوا كضيوف ، يحفظون آداب الضيافة .. تصرفوا تصرف الغدر ، الذى اشتهروا به عبر تاريخهم الطويل ، مع كل شعب أحسن إليهم وآواهم ، والذى رأيناه فى قصة إخوة يوسف ، مع أخيهم يوسف .

لقد « أقاموا بها ، محتفظين بلغتهم وعاداتهم ، وصاروا على طول الزمن ، جالية كبيرة ، متميزة ، تتوالد وتتكاثر ، فى محيط الشعب المصرى » ، « وظلوا فى حياتهم ، يمارسون المهن والأعمال المختلفة المربحة ، ودون اندماج مع المصريين »(١) .

وتكاثر بنو إسرائيل فى مصر ، حتى زاد عددهم « على عدد المصريين أنفسهم »(٢) ، كما صاروا عبئاً على المصريين ، بشرههم إلى المال ، ونزعتهم العنصرية الضيقة ، فأصبحوا موضع كراهية المصريين جميعاً .

وليست عصبية سيدنا موسى فيما بعد ، وقتله أحد المصريين ، إلا صدى لهذه الكراهية العميقة من المصريين لبنى إسرائيل ، فى عهد رمسيس الثانى ، وصدى لضيق بنى إسرائيل بهذه الكراهية ، وعملهم على القضاء عليها .. بكل السبل .

ولكن كيف يقضون على كراهية المصريين لهم ، وهم يتعالون عليهم ، مع أنهم — فى الأصل — ضيوف على مصر والمصريين ؟

لقد « أبوا أن يندمجوا فى الشعب المصرى ، فعزلوا أنفسهم عنه ،

---

(١) محمد اسماعيل ابراهيم : قصص الأنبياء والرسل (مرجع سابق) ، ص ٨٩ .
(٢) الدكتور على عبد الواحد وافى (مرجع سابق) ، ص ١٠٣ .

وتواصوا فيما بينهم ، أن يكون لكل سبط نسله المعروف ، والمميز عن بقية الأسباط ، وذلك حتى يضمنوا الاحتفاظ بنسبهم ، اعتزازاً به ، وتعالياً على غيرهم ، باعتبار أنهم من ذرية الأنبياء .

وهذه العزلة ، التى عاش فيها اليهود فى مصر ، مع الشعور المصاحب لها من التعالى بنسبهم ، هو الذى جعل مقامهم فى مصر قلقاً مضطرباً ، وهو الذى أغرى فراعين مصر والمصريين بهم ، واعتبارهم كائناً غريباً فى كيانهم الاجتماعى ، حتى لقد بلغ الأمر بأحد فراعين مصر ، أن ينزل بهم أقسى الضربات ، وأشدها نكالا وبلاء »(١) .

وكانت هذه الضربات ، فى عهد رمسيس الثانى ، فرعون مصر ، فى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وإليه — لذلك — أرسل سيدنا موسى ، ثالث أنبياء بنى إسرائيل ، بعد يعقوب ، وابنه يوسف — إذا أغفلنا أبا الأنبياء ابراهيم ، الذى يعدونه أباهم ، ويفخرون بانتسابهم إليه .

ويرى المرحوم عباس العقاد ، أن « العرف الشائع بين العبريين ، أنهم يتشاءمون تشاؤماً (تقليدياً) ، بالأيام التى قضوها فى مصر ، ويحسبونها بلية البلايا » ، مع أنهم « لم يستفيدوا قط من هجرة ، فى تاريخهم كله ، كما استفادوا من هذه الهجرة المصرية ، لأنهم نعموا بالعيش الرغيد ، فى جوار النيل ، وتعلموا من آداب الحياة ، وشرائط الصحة ، ما زاد فى عددهم ، وزاد فى خبرتهم ، بتدبير أمورهم ، والدفاع عن أنفسهم »(٢) .

ومنذ خروج بنى إسرائيل من مصر ، وهم يعيشون بين صعود وهبوط ، وكأنهم لم يستفيدوا شيئاً على الإطلاق ، من الدرس الذى لقنوه فى مصر .

---

(١) عبد الكريم الخطيب : اليهود في القرآن (مرجع سابق) ، ص ١١ .

(٢) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية ، أسبق من ثقافة اليونان والعبريين (مرجع سابق) ، ص ٥٨ .

إنهم ما أن يحسوا ببعض القوة ، حتى يبدءوا فى الغدر والخديعة ، مما يؤلب المجتمع عليهم ، فينقض عليهم انقضاض رمسيس الثانى ، فيتوارون تحت عار الخذلان ، حتى تقوى شوكتهم ، فيعودوا إلى الغدر ، وهكذا . . تاريخهم كله ، ابتداء من حياتهم فى مصر ، فى عصر رمسيس الثانى ، وانتهاء بالمأساة ، التى حلت بهم فى ألمانيا ، على يد أدولف هتلر Adolf Hitler ، الذى وجدهم يخططون فى أثناء حكمه، للسيطرة على ألمانيا — بسيطرتهم « تماماً على وكالة الأنباء الاشتراكية الديموقراطية» ، و«على كل الصحف» ، مع « أنهم لم يكونوا من الألمان ،مما أدى إلى الاضطراب والبلبلة فى البلاد»(١) — فرأى أنه لا سلامة لألمانيا ، والبشرية كلها(٢) ، إلا بالإجهاز عليهم — تماماً كما فعل رمسيس الثانى فى مصر القديمة .

وبين رمسيس الثانى ، فى مصر القديمة، فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبين أدولف هتلر فى ألمانيا ، فى أخريات النصف الأول من القرن العشرين، وقعت مذابح كثيرة لليهود ، كان اليهود هم ضحيتها ، وكانوا هم سببها، بسبب نفوسهم المتعبة المريضة ، التى جعلتهم يرون أنفسهم (شعب الله المختار) ، ويصبون جام غضبهم على شعوب الأرض جميعاً ، إذا هى لم تقبلهم سادة لها، بالحقد والتآمر ، والسيطرة على المقدرات .

وحول هذه النفسية المعقدة القذرة ، دارت رسالات أنبيائهم ، على نحو ما سنرى ، فقد كانت جميعها تهدف إلى إصلاح حالهم ، ولكن رسالة من هذه الرسالات ، لم تفد فى إصلاحهم ، كما سنرى أيضا .

---

(1) HITLER, ADOLF : My Struggle, Number II; The Paternester Library, 1937, p. 33.

(2) Ibid., p. 35.

اول المرسلين اليهم :

كان أول أنبياء بنى إسرائيل — كما سبق — هو سيدنا يعقوب .

ولا ترد قصة سيدنا يعقوب فى القرآن الكريم مفصلة ، تفصيل قصة ابنه يوسف ، أو قصة جده إبراهيم ، عليهما السلام .

ولا يأتى الحديث عن سيدنا يعقوب فى القرآن ، الكريم إلا مختصراً وسريعا ، ولا يأتى بعض التفصيل فى قصته ، إلا فى معرض الحديث عن يوسف وقصته ، لا فى معرض الحديث عن يعقوب ذاته .

ويرد ذكر يعقوب فى معارض مختلفة كثيرة ، عند الحديث عن النبوة والأنبياء ، بوجه عام ، فلا نرى فيها خروجاً على (النمط العام)، الذى اختاره الله لأنبيائه ، بل نرى فيها تأكيداً على هذا (النمط العام) :

— « قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »(١) .

— « أم تقولون : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون »(٢) .

— « واذكر عبدنا ابراهيم وإسحق ويعقوب،أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكل من الأخيار »(٣) .

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٣٩ .
(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٤٠ .
(٣) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ٤٥ — ٤٨ .

ولا يكاد يأتينا تفصيل عن قصة يعقوب ، كما سبق ، سوى فى معرض الحديث عن ابنه يوسف ، ومرة واحدة فى موضع آخر — فى سورة البقرة :

— « أم كنتم شهداء ، إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك : ابراهيم وإسماعيل وإسحق ، إلهاً واحداً ، ونحن مسلمون »(١) .

فسيدنا يعقوب ، فيما يرد عنه من آيات فى القرآن الكريم . . نبى من أنبياء الله ، وكفى .

وأنبياء الله — كما رأينا فى مواطن كثيرة سابقة — بشر .

والبشرية — كما رأينا فى الفصلين السابقين — صعود وهبوط(٢) .

وفى قصة سيدنا يعقوب ، كما وردت فى أثناء عرض قصة ابنه يوسف ، نرى أمارات الهبوط كثيرة ، رغم أن العهد القديم ذاته ، يحكى من قصص الهبوط هذه ، أضعاف أضعاف ما يذكره القرآن الكريم .

ففى قصته فى القرآن الكريم ، ترى النزعة البشرية غالبة عليه ، فى ذلك التمييز الصارخ بين الأبناء ، تمييزاً جعل إخوة يوسف يقولون :

— « إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين »(٣) .

وهو تمييز دفع بالإخوة إلى التفكير فى قتل يوسف ، حتى (يخلو لهم) وجه أبيهم ، على حد تعبير القرآن الكريم :

— « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ، يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين »(٤) .

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٣٣ .
(٢) ارجع إلى ص ٣٠ ، ٦١ وما بعدها الكتاب .
(٣) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ٨ .
(٤) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ٩

فما دفع الأبناء الى هذا (السلوك الإجرامى) ، نزعة إجرامية فيهم ، كما قال يعقوب ليوسف ، عندما قص عليه رؤياه :

— « قال : يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين »(١) .

وإنما دفعهم إلى هذا السلوك ، أنهم يفتقدون أباهم ، وهو بينهم حى ، وليس هناك من سبب لهذا الافتقاد ، سوى يوسف فى نظرهم ، ويعقوب نفسه فى الحقيقة .

وقد حز فى نفوس الأبناء ولا شك ، أنه لا يخاف عليهم ولا يفتقدهم عندما يتركونه ، بينما هو يفتقد يوسف ، لو أخذوه معهم مرة واحدة ، للرعى وللعب :

— « قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون »(٢) .

وعندما عاد الأبناء بغير يوسف ، بعد أن نفذوا فيه مؤامرتهم ، حيث ألقوه فى غيابة الجب ، وأتوا على قميصه بدم كاذب ، شك الرجل فيهم منذ البداية ، دون أن يناقشهم أو يحاورهم :

— « ... قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون »(٣) .

وهو سوء نية ، أصيل بين الأب وأبنائه ، لو تصرفه رجل عادى ، لا يتصل بالنبوة ، للامه الجميع عليها ، بل ولوقع تحت طائلة القانون ، بسببها ، وبسبب مواقفه السابقة معهم ، التى دفعت بهم إلى الجريمة دفعاً ، بحيث يمكن أن يكونوا هم المجرمين ، وهم الضحايا أيضاً .

---

(١) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ٥ .
(٢) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ١٣ .
(٣) قرآن كريم : يوسف — ١٢ : ١٨ .

ولنفرض أن الغلمان أخطأوا، أليس الخطأ من طبيعة البشر؟ وإذا كان الخطأ من طبيعة البشر، فإن الغفران يجب أن يسود العلاقات بينهم.

ولكن يعقوب لا يغفر لأبنائه.

إنهم يطلبون بنيامين، شقيق يوسف، ليذهب معهم إلى مصر، بناء على طلب يوسف، ولكنهم بدلا من أن يروه (ينسى) الماضى بفواجعه، يعيد هذا الماضى عليهم، كأنما هو يريد أن يقتلهم ندماً وحسرة، على ما كان منهم من خطأ، فى لحظة من لحظات طيش الشباب:

— «قال: هل آمنكم عليه، إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ فالله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين»(١).

هذه هى البشرية الهابطة، كما أوردها القرآن الكريم، بالنسبة ليعقوب.

ونحن نعتبره هبوطاً، لأنه نبى، ولو لم يكن نبياً، لعددناه مجرد أمر غير طبيعى، لتنافيه مع غريزة الأبوة، التى أودعها الله قلوب الآباء جميعاً، بما فى ذلك آباء الحيوان والطير.

وفى العهد القديم، نرى ألواناً كثيرة من الهبوط، لا يمكن أن تقبل بالنسبة لنبى، أو حتى لرجل فاضل.

إنه — فى نظر التوراة — مخادع، فقد خدع أباه، حين رآه يميل إلى أخيه (عيصو)، ودخل على أبيه، لينتزع منه البركة، التى كان الأب (إسحق) ينوى إعطاءها لعيصو، وكذب عليه فى سبيل هذه البركة:

— «وحدث لما شاخ إسحق، وكلت عيناه عن النظر، أنه دعا عيسو، ابنه الأكبر...». «وكانت رفقة سامعة، إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه»،

---

(١) قرآن كريم: يوسف — ١٢: ٦٤.

« وأما رفقة ، فكلمت يعقوب ابنها ، قائلة : إنى قد سمعت أباك يكلم أخاك ... » . « فدخل (أى يعقوب) إلى أبيه ، وقال : يا أبى . فقال : هأنذا . من أنت يا ابنى ! فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك . قد فعلت كما كلمتنى ... » .

« وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه ، أن عيسو أخاه أتى من صيده ... » . « فعندما سمع عيسو كلام أبيه ، صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً . وقال لأبيه : باركنى أنا أيضاً يا أبى . فقال : قد جاء أخوك بمكر ، وأخذ بركتك »(١) .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فى التوراة .

إنها تصوره — فى سفر التكوين — صوراً أبشع من ذلك .

لقد تزوج ابنتى خاله معاً — ليئة ، الابنة الكبرى ، التى لم يحبها قط ، والتى أنجب منها ستة من أبنائه ، لم يحبهم قط — وراحيل ، الابنة الصغرى الجميلة ، التى أحبها ، وأنجب منها ابنيه الأثيرين ، يوسف (صاحب القصة المشهورة) ، وبنيامين ، الذى أتى به الإخوة إلى يوسف فى مصر ، بناء على طلبه(٢) .

كما قدمت له كل من الشقيقتين جاريتها ، ليزداد لها حباً ، فأنجب من بلهة ، جارية راحيل ، ابنين ، وأنجب من زلفة ، جارية ليئة ، ابنين(٣) .

ومن مجموع هؤلاء الأبناء الإثنى عشر ، يتكون أسباط بنى إسرائيل ، الاثنا عشر .

---

(١) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح السابع والعشرون : ١ — ٣٥ .
(٢) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح التاسع والعشرون : ٢١ — ٣٥ .
(٣) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح الثلاثون : ١ — ١٣ .

وأكثر من ذلك ، أنه رأى ابنه ، رأوبين (أكبر أبنائه — من ليئة) يضاجع زوجته — أو سريته — دون أن يتحرك . وهو أمر لا يرضى به الناس العاديون ، فكيف يرضى به الأنبياء ؟ :

— « وحدث إذ كان إسرائيل ساكنا فى تلك الأرض ، أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة ، سرية أبيه . وسمع إسرائيل »(١) .

ولسنا هنا فى مقام الرد على التوراة ، أو تأييد ما تقول ، فذلك لايعنينا هنا ، وإنما الذى يعنينا ، هو أن هناك حياة بشرية هابطة عاشها ، وأن هذا الهبوط محدود ، فى وصف القرآن الكريم له ، ومرجعه فيه إلى (بشريته)، بينما هو فى كتاب اليهود أنفسهم ، هبوط غير محدود .

مع الرسول المنقذ :

والرسول المنقذ لبنى إسرائيل ، هو سيدنا موسى ، عليه السلام .

وتتردد قصة سيدنا موسى عليه السلام كثيراً فى القرآن الكريم ، وتعرض فى كل مرة ، من زاوية من زواياها ، بحيث يحقق القرآن الكريم عند ذكرها ، مايريد تحقيقه من عظة وعبرة .

وفى قصة سيدنا موسى من أمارات البشرية الهابطة ، رغم أنه (كليم الله) ، ما فى قصة سيدنا يعقوب ، ومرجع الهبوط هنا ، كمرجع الهبوط هناك ، هو تلك (البشرية) ، التى يتسم بها أنبياء الله جميعاً .

وتأتى القصة ، مرتبطة فى كثير من مواضعها بالاضطهاد ، الذى مارسه فرعون مصر ، رمسيس الثانى ، ضد اليهود ، وبالاستبداد الذى سار عليه فى حكمه ، على وجه العموم .

وكان رمسيس الثانى ، فى اضطهاده لليهود ، يعبر عن (الشخصية) المصرية ،

---

(١) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح الخامس والعشرون : ٢٢ .

التى ضاقت بهؤلاء اليهود كما سبق، بعد أن استغلوا (كرم الضيافة) المصرى، أسوأ استغلال، فأصروا ـ وهم دخلاء ـ على التعالى على المصريين، والانعزال عنهم، واستغلالهم، ورفضوا الاندماج فيهم، والعيش معهم، كما يعيش المواطنون جميعاً، تحت سقف الوطن الواحد.

ويورد العهد القديم هذه القصة، ولكنه يوردها على الطريقة الإسرائيلية ـ المتعصبة، التى تعمى عن الحقيقة، فى سبيل الدفاع عن (شعب الله المختار)، ولو بالباطل:

— «ثم قام ملك جديد على مصر، لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه: هوذا بنو إسرائيل، شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لهم، لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب، أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا، ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير، لكى يذلوهم بأثقالهم». «فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية، فى الطين واللبن، وفى كل عمل فى الحقل. كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً. وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات، اللتين اسم إحداهما شفرة، واسم الأخرى فوعة وقال: حينما تولدان العبرانيات، وتنظرانهن على الكراسى. إن كان ابناً فاقتلاه، وإن كان بنتاً فتحيا»(١).

واضطهاد شعب ما، أو جماعة ما، على هذا النحو المؤلم المفجع، أمر لا ترضاه العدالة الإلهية، حتى ولو كانت هذه الجماعة، من .. بنى إسرائيل.

ومن ثم كان لابد من رسول ... منقذ، كما حدث فى كل جماعة، كان فيها استبداد، أو كان فيها اضطهاد.

---

(١) العهد القديم: سفر الخروج — ٢: الإصحاح الأول: ٨ — ١٦.

ثم إن الحكم على طفل بالموت ، لمجرد أنه إسرائيلي ، أو لأنه ابن مجرم ، أمر لا يتفق مع العقل والمنطق ، ولا ترضى عنه عدالة السماء ، ومن هنا كان لابد من تدخل السماء ، إنقاذاً للبشرية فى هذا المجتمع ، من أن يجتاحها طوفان الاستبداد .

فهو ليس تدخلا من الله سبحانه ، لإنقاذ (شعبه) الذى اختاره لنفسه ، كما يحلو للفكر الدينى اليهودى أن يصور القضية(١) ، وإنما هو تدخل من الله سبحانه ، لاستنقاذ (إنسانية) الإنسان ، إذا هى تعرضت للظلم والاضطهاد ، حتى ولو كان هذا الإنسان ، من بنى إسرائيل ، أكثر الناس كفراً بالله ، وعصياناً له ، ساعة الأمان ، لأنهم أكثر الناس لجوءاً إليه أيضاً ، ساعة الخوف . وهو — فى الوقت ذاته — تدخل ، لإيقاف من استعبدهم الشيطان ، عند حد ، لابد أن يقفوا عنده ، بعد أن يتمادوا فى غيهم وغرورهم — كما يصور القرآن الكريم :

— « إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين .

---

(١) ونص عبارة (العهد القديم) ، كما جاءت في سفر الخروج مثلا ، هى :

— « فقال الرب : إنى قد رأيت مذلة شعبي الذى في مصر ، وسمعت صراخهم ، من أجل مسخريهم . إنى علمت أوجاعهم ، فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين ، وأصعدهم من تلك الأرض ، إلى أرض جيدة وواسعة . إلى أرض تفيض لبنا وعسلا » (سفر الخروج — ٢ : الإصحاح الثالث : ٧ — ٩) .

كما يأتى فى موضع آخر من نفس السفر :

— « فصعد صراخهم (أى بنى إسرائيل) إلى الله من أجل العبودية ، فسمع الله أنينهم ، فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب » (سفر الخروج — ٢ : الإصحاح الثانى ٢٣ ، ٢٤) .

ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ، ما كانوا يحذرون »(١) .

وكان الرسول ، الذى اختاره الله سبحانه ، لهذه المهمة الشاقة ، هو موسى بن عمران ، أحـــد بنى إسرائيل المضطهدين ، الذى استعان بأخيه هارون ، فى أداء هذه المهمة :

— « وهل أتاك حديث موسى ؟ إذ رأى ناراً ، فقال لأهله : امكثوا ، إنى آنست ناراً ، لعلى آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى : يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى .. اذهب إلى فرعون ، إنه طغى . قال : رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى : هارون أخى . اشدد به أزرى . . . قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى »(٢) .

ومن العجيب فى قصة موسى ، أنه كان الوحيد من أطفال بنى إسرائيل الذكور ، الذى ينقذ من الموت ، وأنه نشأ وتربى وترعرع ، فى نفس القصر ، الذى ثار عليه فيما بعد ، عندما كلف بالرسالة ، فهدمه فوق رأس صاحبه ، صاحب الفضل عليه .

وهى قصة تدل على اقتدار الله سبحانه ، اقتداراً يخر أمامه ساجداً ، أى اقتدار بشرى ، مهما كان معجزاً .

ويعرض القرآن الكريم قصة استنقاذ موسى ، وتنشئته فى قصر فرعون مصر ، فيقول سبحانه :

---

(١) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ٤ — ٦ .
(٢) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ٩ — ٣٦ .

— « وأوحينا إلى أم موسى ، أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولاتحزنى ، إنا رادوه إليك ،وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ، ليكون لهم عدواً وحزناً . . . وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ،عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون . . . وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ فرددناه إلى أمه ، كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون »(١) .

والمتتبع لحياة موسى ، يرى فيها من أمارات الهبوط (البشرية) الكثير ، إذا قورنت بتلك الأمارات التى رأيناها فى سيدنا يعقوب .

وأولى هذه الأمارات ، رغبته الملحة ، فى أن يرى الله ، وهى رغبة سبقه إليها أبو الأنبياء ، إبراهيم الخليل :

— « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين »(٢) .

وثانية هذه الأمارات ، أنه كان رجلا عجولا ، فقد طلب من الله سبحانه أن يعذب فرعون وقومه فى الحياة الدنيا ، بدلا من أن يطلب من الله أن يهديهم سواء السبيل ، فهذه رسالته ، وكان عليه أن يصبر عليها ، ويتقرب — بما يتحمله فى سبيلها — إلى الله :

— « وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى

---

(١) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ٧ — ١٣ .
(٢) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٤٣ .

الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا ، حتى يروا العذاب الأليم »(١).

ويبدو أن هذه (العجلة) ، جزء من التركيبة النفسية لهذا النبي ، لأنها تكاد تلازمه طول حياته.

فهاهو الله سبحانه ، بعد إنقاذه من فرعون، بعبوره إلى سيناء ، قد واعده « على الجبل ميعاداً ضربه له ، ليلقاه بعد أربعين يوما ، لتلقى التكاليف : تكاليف النصر بعد الهزيمة ، وللنصر تكاليفه ، وللعقيدة تكاليفها ، ولا بد من تهيؤ نفسى ، واستعداد للتلقى ».« لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل ، فهو إليها مشتاق عجول ، ووقف فى حضرة مولاه ، وهو لا يعلم ما وراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده ، حين تركهم فى أسفل الجبل ».

إن « الاستعباد الطويل ، والذل الطويل ، فى ظل الفرعونية الوثنية ، كان قد أفسد طبيعة القوم ، وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف ، والصبر عليها ، والوفاء بالعهد ، والثبات عليه ، وترك فى كيانهم النفسى خلخلة ، واستعداداً للانقياد ، والتقليد المريح . فما يكاد موسى يتركهم فى رعاية هارون ، ويبعد عنهم قليلا ، حتى تتخلخل عقيدتهم كلها ، وتنهار أمام أول اختبار »(٢).

ومثلما تعجل موسى فى لقاء ربه .. تعجل فى الغضب من قومه . وإلهه الموقفين ، يشير القرآن الكريم ، بقوله سبحانه :

« وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أثرى ،

(١) قرآن كريم : يونس — ١٠ : ٨٨ .
(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الرابع (مرجع سابق) ، ص ٢٣٤٦ —

وعجلت إليك رب لترضى . قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ... »(١) .

وقد ظهرت هذه العجلة واضحة ، فى تصرف موسى مع الخضر :

— « وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ، أوأمضى حقباً ... فوجدا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع معى صبراً »(٢) .

ورغم أن موسى قد وعد الخضر بالصبر ، حيث قال : « ستجدنى إن شاء الله صابراً ، ولا أعصى لك أمراً »(٣) ، فقد كان دائم القلق ، يتعجل دائماً معرفة كل شىء ، حتى لقد هدده الخضر مرتين ، إحداهما بقوله :

— « قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ »(٤) .

والثانية بقوله :

— « قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ » (٥) .

وأخيراً ، اضطر إلى أن يقول له :

— « قال : هذا فراق بينى وبينك ... »(٦) .

ثم شرح له ما تعجل معرفته ، وختم شرحه لما حدث ، بقوله له :

(١) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ٨٣ — ٨٦ .
(٢) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٦٠ — ٦٧
(٣) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٦٩ .
(٤) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٧٢ .
(٥) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٧٥ .
(٦) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٧٨ .

— « ... ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً »(١) .

وهذه العجلة ، التى لازمت موسى كبيراً ، كانت معه صغيراً ، قبل أن يكلف بالرسالة ، وكانت هذه العجلة ، مقرونة بشىء من العصبية ، دفعت به إلى القتل ، ثم إلى الاستغفار ، فما أسرع العصبيين إلى الوقوع فى الخطأ ، ثم ما أسرع المؤمنين منهم إلى التوبة والاستغفار :

— « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى ، فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين . قال : رب إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال: رب بما أنعمت على ، فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال : ياموسى ، أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين »(٢) .

وقد وردت هذه القصة بنصها فى العهد القديم (سفر الخروج) مع اختلاف محدود فى التفصيلات(٣) .

وهذه القصص ومثيلاتها ، إن دلت على شىء ، فإنما هى أمارات أخرى على ما فى شخصية موسى من جوانب بشرية هابطة ، بسبب بشريته تلك ، وانتمائه إلى بنى إسرائيل ، بما اشتهر عنهم من خلل نفسى ، وبما عرف عنهم أنهم لاقوه من اضطهاد .

(١) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٨٢ .
(٢) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ١٥ — ١٩ .
(٣) العهد القديم : سفر الخروج — ٢ : الإصحاح الثانى : ١١ — ١٥ .

ومن ثم يرى الشهيد سيد قطب ، أن موسى ، إنما هو « نموذج للزعيم المندفع ، العصبي المزاج » ، حيث نرى في تصرفاته « التعصب القومي ، كما يبدو الانفعال العصبي . وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية ، فيثوب إلى نفسه ، شأن العصبيين »(١) .

ولم يغير الزمن ، ومرور الوقت ، كثيراً ، في شخصية موسى العصبية ، وإنما اتخذت هذه العصبية أشكالا أخرى ، على حد تعبير سيد قطب(٢) .

مع خاتم المرسلين اليهم :

وكان خاتم الأنبياء المرسلين إلى بنى إسرائيل ، هو عيسى بن مريم .

وإلى بنى إسرائيل وحدهم ، دون غيرهم ، بعث عيسى بن مريم ، بنص تكليفه لرسله الإثنى عشر ، الذى يورده إنجيل متى :

— « هؤلاء الإثنا عشر ، أرسلهم يسوع ، وأوصاهم قائلا : إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(٣) .

ولم يرسل عيسى بن مريم إلى بنى إسرائيل ، ليهدم البناء الذى بناه رسل بنى إسرائيل السابقون ، ولكنه أرسل ، ليتم هذا البناء :

— « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض ، بل لأكمل . فإنى الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد ، أو نقطة واحدة من الناموس ، حتى يكون الكل »(٤) .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن (مرجع سابق) ، ص ١٦٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .
(٣) العهد الجديد : إنجيل متى — ١ : الإصحاح العاشر : ٥ ، ٦ .
(٤) العهد الجديد : إنجيل متى — ١ : الإصحاح الخامس : ١٧ ، ١٨ .

كانت أحوال بنى اسرائيل وقت ظهوره ، قد تردت إلى الوثنية .

ولم تكن هذه الوثنية الغليظة بدعة ابتدعوها بعد الرسل ، ولكن يبدو أنها أصيلة فيهم .

والمتتبع لقصة سيدنا موسى معهم ، يرى أن هذه الوثنية ظهرت عدة مرات ، وهو بينهم حى ، وربما كانت هذه الوثنية ، من الأسباب التى أدت إلى زيادة حدة (التوتر) و (العصبية) عنده .

ومن قبل ، مرت بنا قصة السامرى ، كما أوردها القرآن الكريم ، حيث أخرج لهم السامرى (عجلا جسداً ، له خوار) ، فاتخذوه إلهاً ، وبينهم هارون عاجزاً .. وموسى فى رحلة روحية قصيرة ، بعيداً عنهم :

— « فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى ، فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟ ولقد قال لهم هارون من قبل : ياقوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعونى ، وأطيعوا أمرى . قالوا : لن نبرح عليه عاكفين ، حتى يرجع إلينا موسى »(١) .

بل إنهم طلبوا هذا الإله — الوثن — من موسى نفسه :

— « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها ، كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون . قال : أغير الله أبغيكم إلهاً ، وهو فضلكم على العالمين ؟ »(٢) .

ولقد كانت هذه النزعة (الوثنية) ، العميقة فى النفس الإسرائيلية ،

---

(١) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ٨٨ — ٩١

(٢) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٣٨ — ١٤٠ .

هى التى استدعت إرسال عيسى بن مريم إليهم ، وشكلت رسالته ، لتتخذ لها طابعاً ، غير الطابع الذى اتخذته رسالة سلفه .. موسى بن عمران .

كانت شرائع موسى موجودة ، ولكنها — بالوثنية — فقدت روحها ، «واستحالت طقوساً جامدة ، لاحياة فيها ، ومظاهر خاوية ، لا حياة فيها »(١) ، ومن ثم « لم تقم دعوة السيد المسيح » «على الحروف والنصوص ، بل قامت لتحرير الضمائر من ربقة الحروف والنصوص »(٢) ، حتى « يبعث إلى هذه القلوب الصلدة المتحجرة ، قطرات من عواطف الإخاء والحب والتراحم »(٣) .

وكان السيد المسيح ، مثالا لهذا الحب الكبير ، الذى جاء يدعو إليه ، وكان — فى علاقاته — حتى مع أعدائه ، مثالا لهذا التراحم أيضاً .

إلا أن (ارتماءه) فى أحضان هذا الحب والتراحم ، دفع به إلى (إعلان الحرب) على الدنيا ، مما خلق (تناقضاً) ، لا يملك من يقرأ العهد الجديد إلا أن يلاحظه ، فالحب والحرب لا يمكن أن يجتمعا على صعيد واحد ، ويكون اجتماعهما اجتماعا مشروعاً أو منطقيا .

يجد القارئ تناقضاً بين قوله فى إنجيل متى :

— « سمعتم أنه قيل : عين بعين ، وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن . فحول له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢ ، ص ٦ .

(٢) عباس محمود العقاد : مايقال عن الإسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) عبد الكريم الخطيب : الله ... والإنسان ، قضية الألوهية .. بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٢٥٦ .

ميلا واحداً ، فاذهب معه اثنين . من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم . لكي تكونوا أبناء أبيكم ، الذى فى السموات »(١) .

وبين قوله ، فى نفس إنجيل متى :

— « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض . ما جئت لألقى سلاماً ، بل سيفا . فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها »(٢) .

وقوله — كذلك — فى أناجيل أخرى :

— « من ليس معى ، فهو علىّ . ومن لا يجمع معى ، فهو يفرق »(٣) .

— « جئت لألقى نارا على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت ؟ » . « أتظنون أنى جئت لأعطى سلاما على الأرض ؟ كلا ، أقول لكم . بل انقساما . لأنه يكون من الآن خمسة فى بيت واحد ، منقسمين ثلاثة على اثنين ، واثنان على ثلاثة . ينقسم الأب على الابن ، والابن على الأب ، والأم على البنت ، والبنت على الأم ، والحماة على كنتها ، والكنة على حماتها »(٤) .

— « إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده

---

(١) العهد الجديد . إنجيل متى — ١ : الإصحاح الخامس : ٣٨ — ٤٥ .
(٢) العهد الجديد : إنجيل متى — ١ : الإصحاح العاشر : ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) العهد الجديد : إنجيل لوقا — ٣ : الإصحاح الحادى عشر : ٢٣
(٤) العهد الجديد : إنجيل لوقا — ٣ : الإصحاح الثانى عشر : ٤٩ — ٥٣ .

وإخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً »(١)» .

ولا يمكن تفسير هذا التناقض (البشرى) ، إلا بأن المسيح ، الصبور الحليم ، قد ضاق ببنى إسرائيل ذرعاً ، فتحول حلمه الواسع ، إلى عصبية شديدة ، كتلك التى ألمت بسابقه ، موسى بن عمران ، أو بأن تلك الرهبانية ، التى تبدو واضحة فى بعض الأناجيل ، ليست أصيلة فى الفكر الدينى المسيحى ، وإنما هى مبتدعة . وإلى هذا الرأى الأخير ، يميل القرآن الكريم :

— « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم ، وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رحمة ورهبانية ، ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون »(٢) .

وقد تكون هذه الرهبانية المبتدعة ، قد ابتدعت ، لأنها لون من ألوان الرحمة المصطنعة ، وصولا إلى هدف معين ، فلما فشلت فى الوصول إلى أهدافها ، كشفت عن أنيابها الحقيقية .

والتاريخ المسيحى كله ، يؤكد أن الرهبانية لا تظهر إلا فى ساعة الضعف ، أما عند القوة ، فإنها تتحول إلى عنف وقتل وتدمير ، بلا رحمة ولا عطف . وتاريخ العصور الوسطى — مع المسيحيين أنفسهم — خير شاهد على ما نقول . وتاريخ الحروب الصليبية — مع المسلمين ومع المسيحيين الشرقيين — الأرثوذكس — شاهد آخر . وتحالف الصليبية مع الصهيونية اليوم ضد الإسلام والمسلمين ، شاهد ثالث . والشواهد — برغم ما سبق — كثيرة ، وهى تستحق مجلدات كاملة ، لنوفيها حقها .

---

(١) العهد الجديد : إنجيل لوقا — ٣ : الإصحاح الرابع عشر : ٢٦ .

(٢) قرآن كريم : الحديد — ٥٧ : ٢٦ ، ٢٧ .

ولازال المسيحى العادى مذبذباً بين قطبين ، أحدهما هو الصليب، الذى يرمز إلى البذل والتضحية ، وثانيهما هو الفارس الرومانى ، الذى يقضى دائما على خصمه ، ويجهز عليه .

وهو عنف ، لم يشهده التاريخ الإسلامى مع الخصوم ، فى الوقت الذى كان (الجهاد) فريضة على المسلم . . لأنه جهاد من أجل هدف محدد واضح، ولأنه جهاد لتحرير الإنسان ، لا لإخضاعه ، ومن ثم كانت (الأخلاق)، سمة أساسية من سمات هذا الجهاد .

وقد بدأ هذا العنف يظهر ، فى الفكر الدينى المسيحى ، فى حياة المسيح نفسه ، وكان هو الذى أعلنه . فقد أعلنه — أول الأمر — على الكتبة والفريسيين اليهود :

— « وويل لكم أنتم أيها الناموسيون، لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة الحمل ، وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم . ويل لكم ، لأنكم تبنون قبور الأنبياء ، وآباؤكم قتلوهم . إذا تشهدون وترضون بأعمال آبائكم ، لأنهم هم قتلوهم ، وأنتم تبنون قبورهم . لذلك أيضاً قالت حكمة الله : إنى أرسل إليهم أنبياء ورسلا ، فيقتلون منهم ويطردون . لكى يطلب من هذا الجيل ، دم جميع الأنبياء المهرق ، منذ إنشاء العالم . من دم هابيل ، إلى دم زكريا، الذى أهلك بين المذبح والبيت »(١) .

— « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون . لأنكم تبنون قبور الأنبياء، وتزينون مدافن الصديقين . . . أيها الحيات أولاد الأفاعى . كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ »(٢) .

ولقد كان الخليل إبراهيم — عليه السلام — كما سبق(٣) — حليما ،

(١) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الإصحاح الحادى عشر : ٤٦ — ٥١ .
(٢) العهد الجديد . انجيل متى - ١ : الإصحاح الثالث والعشرون : ٢٩ — ٣٣ .
(٣) ارجع الى ص ٤٦ ، ٤٧ من الكتاب .

ولكنه ظل حليماً . إلى النهاية ، لم يفقده حلمه ، الإلقاء به فى النار ، ولا طرده من وطنه ، ولا عنفوان النمروذ ، ملك المستبد .

فما الذى أخرج السيد المسيح عن حلمه ؟

ربما كان التحجر العقلى اليهودى ، وربما كانت ضراوة الحرب التى اضطر إلى خوضها معهم ، وربما كانت نشأته الخاصة ، وكانا يعرف ظروف مولده ، وظروف تنشئته ، وربما كانت محاولات المحيطين به تأليهه ، إعلاء لشأنه وشأنهم ، ونشر الرسالة بالتالى ، ولكنها محاولات — على أية حال — تؤلمه ولا تسعده ، ونستطيع أن نرى مدى إزعاجها له ، من تلك الرواية التى ترويها إنجيل برنابا ، فى مواضع متعددة ، منها هذا الموضع ، الذى يحكى استقبالهم له فى جبل سيناء ، ثم فى أورشليم ، قائلين له : « (مرحبا بك يا إلهنا) ، وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله » ، حيث تنفس « الصعداء ، وقال : (انصرفوا عنى أيها المجانين ، لأنى أخشى أن تفتح الأرض فاها ، وتبتلعنى وإياكم ، لكلامكم الممقوت !) »(١) . ثم « قال : (إنكم لقد ضللتم ضلالا عظيما أيها الإسرائيليون ، لأنكم دعوتمونى إلهكم وأنا إنسان . وإنى أخشى لهذا أن ينزل الله بالمدينة المقدسة وباء شديداً ، مسلماً إياها لاستعباد الغرباء . لعن الشيطان ، الذى أغراكم بهذا ألف لعنة !) ولما قال يسوع هذا ، صفع وجهه بكلتا يديه »(٢) .

وموقف القرآن الكريم من هذه القضية معروف ، وهو مؤيد تماماً للقصة التى تروى فى إنجيل برنابا تلك .

ومعنى ذلك ، أن السيد المسيح ، صار يضيق بأعدائه وبالمؤمنين به على السواء ، فالأعداء يحاربونه علانية ، والمؤمنون به يحاربونه أيضاً ، بخروجهم

---

(١) انجيل برنابا : الفصل الثانى والتسعون : ١٨ ، ١٩ .
(٢) انجيل برنابا : الفصل الثالث والتسعون : ٢ — ٥ .

على تعاليمه ، بل وقلبهم لهذه التعاليم ، رأسا على عقب ، ليحولوها ، من التوحيد ، إلى ... الوثنية اليهودية ، من جديد .

وربما كان ذلك ، من أسباب خروجه على حلمه ، فهو — أولا وأخيرا — بشر ، وللطاقة البشريه حدودها ، حتى ولو كانت هذه الطاقة لنبى مرسل ، قام بالكثير من المعجزات ، لأنه قام بها — حين قام — بأمر الله وقدرته ، لا بغيرهما .

وهو — كنبى — غير قادر على أن يكون له ... حلم الخليل ، إبراهيم ، أبى الأنبياء ، وهذا قدره .

واخـــيرا :

لم نفرد لبنى إسرائيل فصلا خاصاً بهم — كما سبق — لفضلهم ، ولأنهم (شعب الله المختار) ، كما يدعون ، ولكننا أفردناه لهم ، لأنهم شعب يعيش بيننا اليوم ، ومن ثم تكون قصتهم (قصة حاضرة) ، وليست (قصة ماضية) .

وهذا الذى صنعه بنو إسرائيل مع الرسل والرسالات ، ومع دعاة الحق والخير ، من قومهم ومن غير قومهم ، لايزالون — إلى اليوم — يصنعونه ، مع المؤمنين والموحدين ، فى كل مكان على الأرض .

والرسالات التى أرسلت إليهم ، ورد فعلهم لها ، يدل دلالة أكيدة ، على أن الرسول حين يأتى ، إنما يأتى لعلاج مرض اجتماعى معين ، نتج عن فساد العقيدة ، وأن هذا المرض الاجتماعى ، بالنسبة لبنى إسرائيل ، إنما مرض عضال ، أو (مزمن) ، لا شفاء منه .

ومن أجل ذلك ، كثر هؤلاء المرسلون إليهم ، وفشل هؤلاء المرسلون الكثيرون ، فى علاجهم .. فإن « الأنبياء فى بنى إسرائيل ، لم يكن وجودهم

ندرة . ولم يكن بينهم فترة ، فقد يوجد فى العصر الواحد أربعمائة نبى »(١) ، ومع ذلك ، فقد انحصرت فكرة النبوة عندهم ، انحصار فكرة الألوهية ، فالإله إلههم وحدهم ، وظيفته سحق أعدائهم ، والسهر على راحتهم ، والنبوة عندهم « صناعة موقوفة على استطلاع الغيب ، لتحذيرها من الضربات التى تواجهها ولا تخشاها ، من إله غير إلهها »(٢) .

وكأنما أرادت حكمة الله ، أن يظل بنو إسرائيل إلى اليوم ، وحتى قيام الساعة ، ليتجسد الشيطان فيهم ، فينفذ من خلالهم مخططاته ، ليظل (الصراع) بين الخير والشر ، حتى تقوم الساعة ، كما وعد الله سبحانه إبليس ، عندما طلب منه فرصة ، يختبر — من خلالها — هذا الإنسان ، الذى كرمه ربه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فرفض هو ، وسجد الملائكة ، واستحق — برفضه — الطرد من رحمة الله .

وهنا نجد أنفسنا ، وجهاً لوجه ، مع نبوة الإسلام ، وما صارت تقوم عليه ، فى هذا الواقع الجديد ، الذى نزلت فيه .

---

(١) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، في التاريخ ، وكشوف العصر الحديث — رقم (٢٠٢) من (كتاب الهلال) — يناير ١٩٦٨ ، ص ٣٧ .

(٢) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام ، وأباطيل خصومه — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٥٧ ، ص ٧٦ .

الفصل الرابع

نبوة الإسلام

تقـــديم :

لم يكن المجتمع الذى أرسل إليه خاتم الرسل ، محمد عليه الصلاة والسلام ، مجتمعاً واحداً ،ذا (تركيبة نفسية) واحدة ،كما كانت المجتمعات ، التى أرسل إليها إخوته ، الأنبياء السابقون ، عليهم السلام ، وإنما كان مجموعة من المجتمعات ، فى مجتمع واحد .

كان فى هذا المجتمع ، الريف والحضر ، وكان فيه السكان المقيمون ، والبدو المتنقلون ، وكانت السياسات فيه متباينة ، بين الملكية المستبدة ، والقبلية ، وكان فيه مكان (للمتسيبين) ، ممن لا يرضون بأى حكم ، ديموقراطياً كان أو ديكتاتورياً .

ويحفظ الشعر العربى بين جوانحه ،لوناً من أرق ألوان الشعر وأعذبه ، لما يمثله من انطلاقة ، لاتحدها حدود .. هو شعر الصعاليك .

وكانت الأمراض الاجتماعية ، المنتشرة بين هؤلاء العرب ، نتيجة لذلك التباين ، فى المجتمع الذى اختير محمد من بين أبنائه ، خاتماً للأنبياء والرسل.. كثيرة ، تفرقت — قبله — فى مجتمعات كثيرة ، أرسل إلى كل منها نبى أو رسول .

وكانت الجماعة الإنسانية ، فى الوقت الذى أرسل فيه محمد برسالته ، قد تطورت ونمت ، بحيث أصبحت الرسالة، فى حاجة إلى أسلوب جديد فى

التبليغ ، غير أسلوب (المعجزات الخارقة) ، الذى كان الأسلوب المتبع، مع الأنبياء السابقين .

ومن ثم كان الإسلام كان خاتم الرسالات ، وكان رسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكان واجباً أن نبدأ قصة الخاتمة .. من البداية .

ارقى البيئات حضاريا :

يعرف التاريخ من الحضارات القديمة ، التى سبقت ميلاد السيد المسيح بقرون ، الحضارة الهندية والحضارة الصينية والحضارة الفارسية ، والحضارة الآشورية والحضارة البابلية ، والحضارة الفرعونية (المصرية) ، والحضارة الإغريقية ، والحضارة الرومانية ، التى كانت — عند ميلاد السيد المسيح — قد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة .

ويرى المرحوم عباس محمود العقاد ، أن الحضارة العربية ، كانت أسبق من هذه الحضارات جميعاً ، وأنه لم تكن حضارة من هذه الحضارات لتوجد ، لو لم تكن هجرة (عربية) إلى حيث وجدت ، لتقيم دعائمها ، فهى حضارات أنشأها عرب ، هنا وهناك ، و « أنه مهما يكن الظن بالابتكار فى أطواره الأولى ، فالطابع السامى ظاهر ،على أول ما اقتبسه الأوربيون ، من دروس الفلك والكتابة والحكمة الرواقية ، وبعض أسباب التجارة والملاحة والعمارة » ، و أن « المعارف الفلكية،التى وصلت إلى الأوربيين ، وبنوا عليها عقائدهم فى الكواكب والأيام » ، و « أن الكتابة ، قد وصلت إلى الأوربيين والهنود ، من طريق أبناء الجزيرة العربية »(١) . . . إلخ .

ذلك أن الشعوب ذات الحضارات القديمة ، فى منطقة الشرق الأوسط ،

---

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٥ ، ص ٢٧ .

ترتد أصولها ، إلى الجزيرة العربية ، فالأكاديون مثلا « من الجزيرة العربية ، وانطلقوا إلى سهل شنغار بجنوب العراق ، حوالى ٣٥٠٠ ق . م ، واتجهت شعبة من تلك الهجرة إلى وادى النيل ، وامتزجت بسكانه القدامى » ، كما « تدفقت موجات العموريين من شبه الجزيرة العربية على العراق سنة ٢٥٠٠ ق . م ، حيث أسسوا الدولة البابلية الأولى » ، « وذهبت شعبة من العموريين إلى شمال سوريا » و « هاجر الكنعانيون ، من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ، فى أعقاب العموريين ، وأسسوا فى سورية ممالك صغيرة » .

« وسكن فريق من الكنعانيين ، الساحل السورى ، والسهل الضيق ، المجاور للساحل ، وعرفوا باسم الفينيقيين » .

كما « خرجت طلائع الآراميين من بلاد العرب سنة ١٥٠٠ ق.م ، ومرت فى طريقها ببلاد الرافدين ، ثم تمركزت بعد مدة ، فى الربوع السورية من دمشق ، فى طوروس ، وأنشأوا ممالك ، فى مدن مستقلة ، أشهرها مملكة دمشق ، التى امتدت أراضيها ، فى أواخر القرن الحادى عشر ق . م ، إلى نهر الفرات شمالا ، وإلى نهر اليرموك جنوباً »(١) .

وإذا كان العرب ، قد وصلوا إلى (الأستاذية) ، بالنسبة للعالم المتحضر القديم ، وبالتالى بالنسبة للعالم كله ، على هذا النحو ، فإن معنى ذلك أن (العقل العربى) كان قد وصل — يوم البعثة المحمدية — إلى (قمة) ، لم يصل إليها غيره ، فعقل الأستاذ دائماً أرقى بكثير ، من عقل تلميذه .

ولو فرض ونبغ هذا التلميذ ، بحيث فاق استاذه ، فإن الفضل فى هذا النبوغ ، إنما يعود إلى الأستاذ ذاته ، قبل أن يعود إلى التلميذ .

---

(١) دكتور ابراهيم أحمد العدوى : التاريخ الإسلامى ، آفاقه السياسية ، وأبعاده الحضارية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٦ ، ص ٦ ، ٧ — من الهامش .

وليست (الأستاذية) دوما دليل فضل وكمال ، بل إنها قد تكون دليل سفالة وانحطاط . إنها تدل على السمو والارتفاع وحدهما ، ولكن فى (علم) من العلوم ، أو فن من الفنون ، من حيث (إتقان) ذلك العــلم ، أو هذا الفن .

أما الفضل والكمال ، فهما شىء آخر .

فالإتقان أمر يتصل بالنضج (العقلى)، بينما الفضل والكمال أمران يتصلان بالرقى (الخلقى) .

وقد يكون (العلماء ورثة الأنبياء) ، ولكنهم قد يكونون أيضاً (شياطين متجسدة) .

وهم يكونون ورثة الأنبياء ، حين يكونون على خلق ، لأن علمهم هنا سيكون دعماً للفضيلة — ويكونون شياطين متجسدة ، حين يكونون على غير خلق ، لأن علمهم هنا سيكون دعماً للرذيلة ، وحرباً على الفضيلة .

ومن ثم كان « الجاهل المتخلق ، أفضل من العالم الفاسد ، ذلك أن العالم الفاسد، أكثر فتكا بالمجتمع ، من الجاهل الفاسد ، إذ أن ضرر الثانى محدود ، لا يتجاوز حدود أفراد معينين ، أما العالم الفاسد ، فإنه يستطيع أن يفسد المجتمع بأسره ، بل المجتمعات بأسرها »(١) .

وكان المجتمع الجاهلى ، قد وصل إلى درجة من العلم ، صار بها — فى رأى العقاد — أستاذاً للإنسانية كلها ، فى مجال العلم والحضارة .

إلا أنه — بهذا التقدم العلمى والرقى العقلى — كان قد وصل إلى هاوية، بسبب الفساد الخلقى .

---

(١) مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام (دراسة مقارنة) — الطبعة الأولى — مكتبة الخانجى بمصر — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٣ م ، ص ١٠١ .

ومن ثم وصف هؤلاء العرب (بالجاهليين) ، رغم ما كانوا عليه من (علم) .

فهى جاهلية ، منسوبة إلى (الجهالة) ، أو الغلظة ، أو القسوة ، أوسوء الخلق ، الناتج عن فساد العقيدة ، أو عن الغرور ، الذى يركب الإنسان ، أحياناً ، نتيجة لتفوقه العقلى — وليست جاهليته منسوبه إلى الجهل ، المضاد للعلم .

ونتيجة لهذا الفساد الخلقى، صار الإنسان « إنساناً معكوساً ، قد فسدت عقليته ، فلم تعد تسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ، وفسد نظام فكره ، فإذا النظرى عنده بديهى وبالعكس ، يستريب فى موضع الجزم ، ويؤمن فى موضع الشك . وفسد ذوقه ، فصار يستحلى المر ، ويستطيب الخبيث ، ويستمرئ الوخيم ، وبطل حسه ، فأصبح لا يبغض العدو الظالم ، ولا يحب الصديق الناصح »(١) .

وقد انتقل هذا (المسخ) و (التشويه) ، من إنسان الجزيرة العربية ، إلى الكتابيين القليلين، الذين كانوا يعيشون بين العرب، وبدلا من أن يكونوا رسل هداية لهم ، بما بين أيديهم من نور هداية ، وصل إليهم — عن طريق رسلهم — من السماء ، صاروا موضع سخرية من هؤلاء العرب ، لأنهم — أولا — حرفوا ديانات السماء ، التى صاروا أمناء عليها ، ثم حاولوا — ثانياً — (فلسفة) هذا الباطل الذى خلقوه ، بتحريفهم ، فصاروا موضع سخرية أشد ، وحصرهم العرب فى ركن من أركان حياتهم .. لم يتجاوزوه ، ولم يكونوا يستطيعون أن يتجاوزوه .

ويرى العلامة المودودى ، أن أهل الكتاب « بالغوا فى تعظيم النفوس

---

(١) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ٨٩ .

المقدسة ، كالأنبياء والأولياء والملائكة ، التى تستحق التكريم والتعظيم ، لمكانتها الدينية ، فرفعوها من مكانتها الحقيقية ، إلى مقام الألوهية ، وجعلوها شركاء مع الله ، ودخلاء فى تدبير أمر هذا العالم ، ثم عبدوها واستغاثوا بها » ، وأنهم « (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ، أى أن الذين لم تكن وظيفتهم فى الدين سوى أن يعلموا الناس أحكام الشريعة الإلهية . . . » ، « تدرج بهم هؤلاء ، حتى أنزلوهم ، بحيث يحلون لهم ما يشاءون ، ويحرمون عليهم ما يشاءون ، ويأمرونهم ، حسب ما تشاء أهواؤهم ، بدون سند من كتاب الله »(١) .

أى أن المسخ والتشويه ، الذى أصاب الديانات السماوية ، عزل هذه الديانات ، فى ركن ضيق من أركان الحياة العربية ، لأن العقل العربى المتحضر ، كان غير مستعد لأن يستسيغ واحدة منها ، وربما قبلها . . . لو بقيت غير مشوهة .

وهذا المسخ والتشويه ، لم تسلم منه — كما سبق — الفكرة الإلهية ، أو الأفكار المتصلة بالذات الإلهية ، ومن ثم كان لابد من ظهور الإسلام ، لتصحيح « أفكار كثيرة ، لا فكرة واحدة ، عن الذات الإلهية ، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية ، من أخلاط شتى ، من بقايا العبادات الأولى ، وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية »(٢) .

وكأنما كان السيد المسيح ، يحس ، بعد أن رأى صد بنى إسرائيل عن سبيل الله ، ومقاومتهم لكل حق ، على نحو ما رأينا فى الفصل الماضى ، بأن النبوة ستنتقل من بنى إسرائيل ، إلى قوم يستحقونها ، وها هو متى يقول :

---

(١) أبو الأعلى المودودى : المصطلحات الأربعة فى القرآن : الإله — الرب — العبادة — الدين — دار التراث العربى للطباعة والنشر — ١٩٧٥ ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) عباس محمود العقاد : الله — مطابع الأهرام التجارية — ١٩٧٢ ، ص ١٣٣ .

— « قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناؤون ، هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه »(١).

وهذا الذى يقول به متى مجازاً ، يقول به برنابا حقيقة ، وتصريحاً لا تلميحاً ، فى مواضع متعددة من إنجيله ، منها قوله :

— « أجاب يسوع : (إنى حقا أرسلت إلى بيت إسرائيل، نبى خلاص. ولكن سيأتى بعدى مسيا (أى الرسول) ، المرسل من الله لكل العالم ، الذى لأجله خلق الله العالم. وحينئذ يسجد لله فى كل العالم ، وتنال الرحمة ، حتى أن سنة اليوبيل ، التى تجىء الآن كل مئة سنة ، سيجعلها مسيا كل سنة ، فى كل مكان » (٢).

ومنها قوله :

— « أجاب التلاميذ : يا معلم ، من عسى أن يكون ذلك الرجل ، الذى تتكلم عنه ، الذى سيأتى إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب : (إنه محمد رسول الله. ومتى جاء إلى العالم ، فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة ، التى يأتى بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطى ثمراً ، بعد انقطاع المطر زمناً طويلا. فهو غمامة بيضاء ، ملأى برحمة الله ، وهى رحمة ينثرها الله ، رذاذاً على المؤمنين ، كالغيث) »(٣).

وهكذا يمكن أن نقول : إن رسالة الإسلام كانت خاتم الرسالات ، لأنها جاءت إلى الناس كافة ، ولأنها جاءت إلى مجتمع ، ضم بين ضفتيه ،

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الإصحاح الحادى والعشرون : ٤٢ — ٤٤ .
(٢) إنجيل برنابا : الفصل الثانى والثمانون : ١٦ — ١٨ .
(٣) إنجيل برنابا : الفصل الثالث والستون بعد المئة : ٧ — ١١ .

ما تفرق فى المجتمعات البشرية كلها ، من عيوب اجتماعية ، ووصل — حضارياً — إلى درجة لم يسبق إليها .

ومن ثم نزلت هذه الرسالة الخاتمة ، صالحة لكل زمان ومكان ، لأن فيها ما يناسب الناس جميعاً ، فى كل زمان ومكان ، ففيها كل الأدواء ، وكل الأدوية ، وكل إنسان يجد نفسه فيها ، على نحو من الأنحاء .

رسول ذو شخصية جامعة :

وإذا كان من الأنبياء من نشأ نشأة أرستقراطية ، ومنهم من نشأ نشأة كادحة ، فقد كان رسول الله محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بين الأنبياء والرسل ، شخصية جامعة ، فقد كان — من الناحية الاقتصادية — فقيراً . ولكنه كان — من الناحية الاجتماعية — ينتمى إلى أعرق البيوت العربية .

وكان يتيماً ، ولكن الله عوضه عن اليتم ، بالجد ، ثم بالعم ، و (بالعزوة) ، المتمثلة فى بنى عبد مناف ، وقريش كلها ، عوضاً عن هذا الأب ، الذى فقده .

وكان — اجتماعياً واقتصادياً — من الطبقة الوسطى ، أو البرجوازية ، ولكنه كان — بحسن خلقه وصدقه — معدوداً من علية القوم .

وقد كان لهذه الشخصية الجامعة ، أثرها فى حياته ، وفى رسالته . وكأنما شاء الله سبحانه ، بهذه الظروف التى أحاطت بشخصيته ، فشكلتها على هذا النحو الجامع ، أن يجعل منها شخصية ، تجمع أنبياء الله جميعاً ، على صعيد واحد ، هو صعيد هذه الشخصية الجامعة .

ثم كان لهذه الشخصية الجامعة — بعد ذلك — أثرها فيمن جمعهم حوله ، من صحابة ، فلم يكن هؤلاء الصحابة ، نمطاً واحداً من الرجال ، وإنما كانوا

(عالماً) بأسره ، يجمع بين دفتيه ، بين (المتناقضات) ، فقد كشفت الدعوة المحمدية « النماذج المتقابلة في الأمة العربية ، بين عشية وضحاها ، فإذا الأمة العربية كلها ، كأنما هي حشد مستعد بكل عدة ، متزود بكل زاد .

ظهر فيها أقطاب الشجاعة ، وأقطاب الدهاء ، وظهر فيها المقدمون والمتحذرون ، وظهر فيها الخياليون والعمليون ، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يوازيه ، ويستند إليه »(١) .

ومن ثم لم يجتمع على هذه الدعوة ، ولم يؤمن بها ، إلا (الخيرون) من كل البيئات ، ومن مختلف الأمزجة والصفات ، فأحاط « بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال ، مختلفون في الأعمار والأقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب ، مختلفون في الأمزجة والأخلاق ، مختلفون في ملكات العقول وضروب الكفايات ، مختلفون في فهم الدين وبواعث الإسلام ، فكان اختلافهم هذا ، آية من أصدق الآيات ، على رحابة الأفق ، وتعدد الجوانب ، في نفس ذلك الإنسان العظيم »(٢) .

« وربما عظم الرجل في مزية من المزايا ، فأحاط به الأصدقاء والمريدون ، من النابغين في تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط ، والقادة بنابليون .

بل ربما أحاط الصالحون بالنبي العظيم ، كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام ، وكلهم من معدن واحد ، وبيئة واحدة .

أما عظمة العظمات ، فهي تلك التي تجذب إليها الأصحاب النابغين ، من كل معدن ، وكل طراز ، وهي التي يتقابل في حبها رجال ، بينهم من التفاوت ،

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م ، ص ٧٠ .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية خالد — دار الهلال ، ص ٤٧ .

مثل ما بين أبى بكر وعلى ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص» ، فأصبحت « تجمع بين البأس والحلم، والحيلة والصرامة، والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن ، وحمية الشباب »(١) .

وميزة هذه الشخصية الجامعة ، للرسول الجامع فى نشأته ، الجامع فى إمكانياته ومواهبه ، الجامع فى رسالته، الجامعة لكل الرسالات والنبوات .. أن كل صحابى من صحابته ، المحيطين به ، كان (عبقرية) فى حد ذاته ، لها لونها ، المختلف عن غيرها من (العبقريات) ، ومع ذلك يرى فى شخصه صلى الله عليه وسلم . . أستاذاً له .

وكأنما اجتمعت فى هذه الشخصية الجامعة ، عظمة العظمات ، وجماع كامل من العبقريات ، فاتسعت — بذلك — لكل أنواع البشر ، ومثلت بحق كل الرسل ، وعبرت عنها خير تعبير فى عبقرياتها ، وعبرت رسالة الإسلام التى اضطلعت بها ، عن كل الرسالات والنبوات .

وفى هذه الشخصية الجامعة ، اجتمع ما تفرق فى الأنبياء من صفات ، فاستحقت — بحق — أن تكون الأستاذة فى مجال النبوات . فلم تكن هذه الشخصية ليناً متصلا ، ولا عنفاً متصلا ، وإنما كانت تجيد العنف والشدة ، حين يجب العنف ، وتجب الشدة ، وكانت تجيد اللين والرقة ، حيث لا يكون هناك ما يستوجب سوى اللين والرقة .

وصدق الله سبحانه ، فى وصف صاحب هذه الشخصية الجامعة ، صلى الله عليه وسلم ، وفى وصف أصحابه والمحيطين به، والمتأثرين بسحر شخصيته:

— « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد — دار الكتب الحديثة — القاهرة — ١٩٦٦، ص ٩٥ ، ٩٦ .

كله ، وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله ، والذين معه ، أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً »(١) .

لقد كان كل واحد من هؤلاء الصحابة أمة فى ذاته ، وربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد ذلك ، فى تشبيهه للصحابيين العظيمين ، أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، ذلك التشبيه المشهور ، الذى شبه فيه أبا بكر ، فى رقته ولينه ، بإبراهيم ، وشبه فيه عمر ، فى تشدده وعنفه ، بنوح ، فكل من أبى بكر وعمر ، على ما بينهما من تباين فى الصفات النفسية ، صحابى جليل ، وذو فضل على دعوة الحق إلى الله لا ينكر ، تماماً كما أن كلا من إبراهيم ونوح ، على ما بينهما من تباين فى الصفات النفسية ، وفى أسلوب الدعوة إلى الله ، نبى من أنبياء الله ، كما سبق ، يجب الإيمان به والاعتراف بفضله ، كالإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر . . سواء بسواء .

وبهذه الشخصية الجامعة ، استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعايش الأغنياء ، استطاعته معايشة الفقراء والمتوسطين ، كما استطاع أن يعايش العبيد ويعايش الأحرار ، واستطاع أن يعايش الرجال وأن يعايش النساء والغلمان ، وأن يكون قريباً من قلب هذا وقلب ذاك ، وأن يحتل فى قلوب الجميع منزلة مقدسة ، يعبر عنها كل مسلم من هؤلاء ، حين يحدق الخطر به ، بقوله : فداك أبى وأمى يا رسول الله ، وبترجمته هذا القول إلى سلوك ، يقوم به بحماية الرسول الكريم من الخطر المحدق به ، حتى ولو كان

(١) قرآن كريم : الفتح — ٤٨ : ٢٨ ، ٢٩ .

هذا الخطر قادماً من خلال كلمة حاقدة من عدو ، أو كلمة جاهلة من أعرابى، لا يعرف قدر الرجال ، كما حدث فى موقف عمر رضى الله عنه ، من ذلك (الجلف)، الذى اتهم الرسول بعدم العدل فى توزيع الغنائم ، فأراد عمر أن يستل سيفه ، لدفع هذا الخطر ..لولا حلم رسول الله، وما أحلمه من رسول، ساعة الغضب .

ولم يحس الأغنياء — وهم يعايشونه — إلا بغناه ، ولم يحس الفقراء إلا بأنه فقير مثلهم ، ولم تحس النساء إلا بأنه يفهمهن حق الفهم ، ولم يحس حتى الأطفال أبداً بأنه كبير . . حتى فى الصلاة ، كان — كما كان يحدث مع الحسن والحسين — يعرف طريقه ، إلى قلوب هؤلاء الأطفال .

فهو — صلى الله عليه وسلم — ذو شخصية جامعة ، تجد لها مكاناً بين كل الشخصيات ، ومن هنا كانت عالمية الدعوة ، وعالمية الداعية .

وبهذه الشخصية الجامعة أيضاً ، استطاع خاتم الأنبياء والمرسلين ، أن يعيش النصر ، دون أن يغتر بالنصر ، وأن يعيش الهزيمة ، دون أن تحطمه الهزيمة ، وأن يعيش الاضطهاد ، دون أن يثنيه عن عزمه ، وأن يعيش رئاسة الدولة ، دون أن تنسيه هذه الرئاسة أنه هو هو .. محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله .

ولم يحدث لنبى من أنبياء الله قبله ، أن عاش كل هذه الحالات ، وإنما عاش كل نبى منهم حالة واحدة ،من هذه الحالات .

فقد عاش داود عليه السلام — كما سبق(١) — مالكا فقط — مالكا

---

(١) ارجع إلى ص ٥٨ من الكتاب .

للغنم أول الأمر ، وراعياً لها ، ثم صار — بعد ذلك — مالكا لبنى إسرائيل ، أو ملكا عليهم ، ولا فرق كبيراً بين ملكية الغنم ، وتملك بنى إسرائيل ، فهى ملكية واحدة ، أو سياسة واحدة فى الملك ، كما رأينا من تاريخهم فى الفصل الماضى .

ولم يكن غريباً ، أن يشبههم خاتم المرسلين إلى — المسيح عيسى بن مريم — بالخراف(١) .

وعاش موسى بن عمران ، راعياً أيضاً لخراف بيت إسرائيل الضالة ، على حد تعبير السيد المسيح السابق ، ولكنه فشل ، عندما كان يعيش — قبل البعثة — حياة الاضطهاد مع بنى إسرائيل فى مصر(٢) .

وكذلك عاش المسيح ، عيسى بن مريم ، مضطهدا ، ولم يتح له أن يعيش غير هذه الحياة المضطهدة(٣) .

وعندما يعيش خاتم الأنبياء ، عليه الصلاة والسلام ، هذه الحياة المتنوعة الجامعة ، فإنما هو يعيشها — فى نظرى — ليعيش حياة الناس جميعاً ، عيشته لحياة الأنبياء جميعاً ، فيكون — بحق — أسوة للسائرين فى طريق الله ، وللذين ينشدون الحياة الدنيوية المثلى جميعاً :

— « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً »(٤) .

---

(١) ارجع إلى ص ٩٣ من الكتاب .
(٢) ارجع إلى ص ٨٥ — ٩٣ من الكتاب .
(٣) ارجع إلى ص ٩٣ — ٩٦ من الكتاب .
(٤) قرآن كريم : الأحزاب — ٣٣ : ٢١ .

رسالة خاتمة :

لا أتصور - شخصياً - أن يوجد مؤمن بالله ، فى عصرنا الحديث ، لا يؤمن بالإسلام ، ولا يرتضيه ديناً له .

ولست أستمد هذا التصور ، من تلك الآيات القرآنية الكريمة :

- « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ، إلا من بعد ما جاءهم العلم ، بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله ، فإن الله سريع الحساب »(١) .

- « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين »(٢) .

- « فمن يرد الله أن يهديه ، يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله ، يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »(٣) .

ذلك أن البعض يحلو له أن يفسر الإسلام هنا ، بإسلام الوجه لله ، وإلى إسلام الوجه لله دعا كل الأنبياء والرسل ، وليست الدعوة إلى ذلك بقاصرة على خاتم الرسالات .

كما أننى لا أستمد هذا التصور ، من تلك (البشارة) ، التى بشر بها عيسى ابن مريم - بشارته بمحمد رسول الله ، خاتم الأنبياء ، تلميحاً فى الأناجيل المعترف بها من الكنيسة ، وتصريحاً فى انجيل برنابا ، الذى لا تقره الكنيسة ، ولا تعترف به ، كما سبق فى مطلع هذا الفصل(٤) .

والإنجيل - العهد الجديد - لغة - هو البشارة أى البشارة بالرسالة الخاتمة .

---

(١) قرآن كريم : آل عمران - ٣ : ١٩ .
(٢) قرآن كريم : آل عمران - ٣ : ٨٥ .
(٣) قرآن كريم : الأنعام - ٦ : ١٢٥ .
(٤) ارجع إلى ص ١٠٧ ، ١٠٨ من الكتاب .

وإنما أنا أستمد هذا التصور ، من استيعابى لقصة الأنبياء والرسل ، والقوم الذين أرسل إليهم كل نبى ، وظروف كل رسالة ، واقتناعى بأنها كانت رسالة ، موقوتة بزمان ومكان معينين ، وقوم محددين ، وعدم صلاحيتها — من حيث التطبيق العملى — إلا للزمان والمكان المحددين .

فنقص الكيل والميزان ، أو اللواط ، أو العدوان ، أو الاستسلام . . كلها كانت (عيوباً اجتماعية) ، موجودة بالفعل ، أتت لعلاجها هـــذه الرسالات .

ومن ثم يكون الإيمان بالرسل والرسالات جميعاً ، مطلباً . . لأنها جميعاً دعوة إلى التوحيد ، ولو صدق الإيمان بالله الواحد الأحد ، كما تدعو كل رسالة من هذه الرسالات ، لأدى هذا الإيمان تلقائياً — إلى الإيمان بمحمد ، لأنه لم يهدم هذا المبدأ ، وإنما هو دعمه ، وصححه ، بعد أن انحرف خط التوحيد ، فابتعد عن هذا التوحيد .

ومن ثم لم يكن غريباً ، أن يدعم الخط القرآنى العام ، الإيمان بالأنبياء والرسل والرسالات — ثم يرى — بعد ذلك — أنه لا سبيل إلى الله — بعد رسالة محمد — إلا سبيل الإسلام :

— « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من السموات والأرض ، طوعاً وكرهاً ، وإليه يرجعون ؟ قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين »(١) .

ذلك أن الإيمان باليهودية وحدها اليوم ، يغدو إيماناً ببنى إسرائيل

---

(١) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ٨٣ — ٨٥ .

وحدهم ، وإلغاء لكل بنى آدم، الذين يعيشون فى هذا العالم.. إلا أن يعيشوا عبيداً لهؤلاء اليهود.

ولقد كان سيدنا موسى منطقياً مع زمانه ومكانه ، يوم قاد بنى إسرائيل ، وأنقذهم من الإذلال الذى كانوا يعيشونه.

ولكنهم — بعد تحررهم من الإذلال — لم يعودوا فى حاجة إلى موسى المنقذ.. وإنما غدوا فى حاجة إلى منقذ جديد ، لا ينقذهم من فرعون وظلمه وبطشه ، وإنما ينقذهم من شر أنفسهم ، فكأن المسيح عيسى بن مريم ، جاء ينتشلهم بهذا الإنقاذ.. إلى عالم أرحب.. هو عالم الروح.

ولقد كان سيدنا عيسى منطقيا مع زمانه أيضا ، يوم حاول استنقاذ هذه الخراف الضالة — على حد تعبيره السابق — من تلك المراعى النتنة.. مراعى الحياة الدنيا.

ولكن رسالته تصبح غير ذات موضوع ، إذا هى فشلت فى إنقاذهم ، لأنها لا تجد لها مكاناً بين غيرهم ، لأنه لم يوجد — عبر التاريخ — غيرهم ، بهذا الانغماس المشين ، فى الحياة الدنيا ، بحيث تصح أن تكون رسالته (رد فعل له).

ولم يكن غريباً ، أن يضطر المؤمنون بها ، لينشروها فى خارج إسرائيل ، إلى أن (يطوروها) ، لتلائم الأرض الجديدة ، وفى تطويرها ، ابتعدت تماماً عن جوهر المسيحية.

لقد اضطر تلاميذ السيد المسيح ، وحواريوه ، من أجل إحياء دعوته ، ونقلها من أرض اليهود ، إلى الشعوب الوثنية المحيطة بها ، كالرومان واليونانيين وغيرهم ، ورغبة من هؤلاء المبشرين ، فى نشر الدعوة المسيحية ، بين تلك

الشعوب الوثنية ، وخوفا من أن تجد بين هذه الشعوب نفس المصير ، الذى وجدته بين اليهود ، اضطر المبشرون المسيحيون ، إلى تطعيم المسيحية ببعض الطقوس والعادات والشعائر ، التى وجدوها فى تلك الشعوب الوثنية »(١) .

ولم يقف أمر (تطوير) المسيحية ، لتناسب الشعوب الوثنية ، عند حد الطقوس والعادات والشعائر ، بل تعدى ذلك إلى ... صلب العقيدة ذاته ، ومن ذلك قصة تأليه المسيح وصلبه ، فهى ـ بكاملها ـ مأخوذة على يد بولس ، من الشعوب الوثنيـة القديمة ، فقد « كان اليهود الأقدمون ، يشتركون مع الكنعانيين والمؤابيين والفينيقيين والقرطاجنيين ، وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل ، بل بطفل محبوب ، لاسترضاء السماء الغضبى » . « ولقد كانت مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، تؤمن بالآلهة من زمن بعيد ، تؤمن بأوزوريس Osiris وأتيس Attis وديونشيس Dionysus » ، « وديونشيس هذه ماتت ، لتفتدى بموتها بنى البشر »(٢) .

ويعترف كهنة المسيحيـة وحماتها والمدافعون عنها أنفسهم ، فضلا عن الهاربين منها ، ممن سبق أن أوردنا مقتطفات من كلامهم ، بأنه قد « وجد فى كتب الهنود الدينية قولهم : إن الإنسان كفر عن ذنوبه ، بنباتات الأرض ، ثم بحيواناتها ، ثم بفلذة كبده ، لكنه لا يمكن أن يخلص منها إلا إذا كفر عنها بإلهه ، وإن فلسفة سقراط ، الفيلسوف ، الذى عذب لأجلها أشنع تعذيب ، هى قوله : إن الإنسان لا يمكن أن يخلص من خطاياه ، إلا إذا نزل أحد الآلهة ومات ، للتكفير عنها ـ فذلك وغيره مما يدل على أن الحقيقة المسيحية ، هى التى تسد مطالب ضمير البشرية ، وأن الله أظهرها لهم ، كما أظهر لهم

---

(١) محمد مجدى مرجان : الله واحد ، أم ثالوث — دار النهضة العربية ، ص ٨٤ .

(٢) ابراهيم خليل أحمد : محمد ، فى التوراة والإنجيل والقرآن — الطبعة الثالثة — مكتبه الوعى العربى ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

ذاته تعالى »(١) .

بل إنهم يقولون إن الفكرة بكاملها ، شبيهة بنفس الفكرة (فكرة التوحيد) ، فى عقيدة المصريين القدماء ، وأنه «مما يزيد هذا التشابه ، أهمية الألقاب التى أطلقت على هوراس (ابن الله الوحيد عند المصريين) ، فقد دعى (ابن الآب الوحيد ، وكلمة الآب ، ومبرر البار ، والملك الأبدى ، إلخ) »(٢) .

ولقد وجدت هذه الفكرة معارضة من المسيحيين المتدينين أول القول بها ؛ وكان على رأس هؤلاء المعارضين ، آريوس ، ومن ورائه كنيسة أسيوط بكاملها ، « وعلى رأسها ميليتوس ، وكان أنصاره فى الاسكندرية نفسها كثيرين من حيث العدد ، أقوياء من حيث المجاهرة بما يعتقدون ، كما كان لهذا الرأى مشايعون فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية»(٣) .

ومن أجل الاتفاق على (فكرة واحدة) ، اضطر قسطنطين ، امبراطور الرومان ، إلى جمع مجمع نيقية ، سنة ٣٢٥م ، وعندما فشل المجمع ، الذى كان يضم ٢٠٤٨ من الأساقفة ، فى الاتفاق على رأى ، فرض عليهم « رأى بولس ، وعقد مجلسا خاصا للأساقفة ، الذين يمثلون هذا الرأى ، وكان عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة » ، و « قرر المجمع ألوهية المسيح »(٤) .

---

(١) كتاب البراهين العقلية والعلمية ، فى صحة الديانة المسيحية — تأليف وجمع القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين — ترجمة حبيب أفندى سعيد — الطبعة الثانية — مطبعة النيل المسيحية ، بالمناخ بمصر — ١٩٢٥ ، ص ٤٦١ — من الهامش .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٧ .

(٣) الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية (تبحث الأدوار التى مرت بها عقائد النصارى ، وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة ، وفرقهم) — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ١٤٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ورغم هذا (الفرض) ، « لم يخل مكان من عشاق الحقيقة ، ولم يخل زمان من عباد التوحيد ، عرفوا الحقيقة وأعلنوها ، ثم حاربوا فى سبيلها ، وضحوا من أجلها بكل عزيز ، حتى الحياة نفسها ، دفعوها ثمنا يسيراً لإظهار الحقيقة.

ولكن عشاق الزور والبهتان ، وعباد الزيف والضلال ، لاحقوا الموحدين ، تجويعاً وتشريداً ، وسجناً وتعذيباً ، وإحراقاً وتقتيلا ، حتى تاهت الحقيقة . . تاهت وسط الزحام ، ودست فى عمق الظلام .

ثم جاء محمد »(١) .

وكان لابد أن يجىء ، لتصحيح المسار ، شأن الرسل السابقين ، والرسالات السابقة ، فما نزلت رسالة ، إلا بعد (رثت) سابقتها ، وما نزل رسول ، إلا بعد أن وحرف ما قاله إخوته السابقون ، بأيدى الكفر والضلال . . . بتخطيط شيطانى رهيب ، أصر — منذ طرد إبليس من رحمة الله — على أن يظهر لله سبحانه ، أن هذا الإنسان ، الذى كرمه ، وأمره بالسجود له . . ليس جديراً بكل ذلك التكريم .

لقد اضطر أتباع المسيح ، إلى أن (يسترضوا) الناس ، ليؤمنوا بالرسالة ، واختاروا بذلك الطريق السهل ، وما كان الطريق السهل هو طريق الرسالات ، وإلا لابتعدت الرسالة عن جوهرها ، كما حدث فى المسيحية .

ولقد اضطر أحد رجال الكنيسة ، وهو مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ — ١٥٤٠) ، بعد أقل من خمسة عشر قرناً من رفع المسيح إلى الله ، أن (يحطم) الدعائم التى تقوم عليها المسيحية ، بعد أن رثت على هذا النحو

---

(١) محمد مجدى مرجان (مرجع سابق) ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

المخيف ، فى وقت كانت (الحضارة الإسلامية)،قد بدأت تفرض نفسها على الخريطة العقائدية العالمية بشكل واضح .

كانت الكنيسة الكاثوليكية ،قد «جعلت من نفسها منظمة سياسية واقتصادية وحربية ، لا منظمة دينية وكفى » ، وكانت تصرفات رجالها ،« ما يجلل بالعار ، كل مسيحى ،مستمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين»(١)، وفشلت الحروب الصليبية فى أن تقتلع هذا الخطر (الإسلامى) من جذوره بل على العكس ، كانت من أسباب زيادته ، لأنها أوقفت المسيحيين وجهاً لوجه ، أمام الإسلام وحضارته ، فى أرضه ، ولم يعد ممكناً إصلاح الوضع، إلا بإصلاح (الخلل العقائدى) ، الذى حدث ، ومن ثم قيل : إن حركة الإصلاح الدينى ،التى قام بها مارتن لوثر ، « تأثرت بمبادئ الإسلام ، فى مثل إبطال الكهنوتية ، وتحريم صكوك الغفران»(٢)،«فقد كانت — على علاتها — أبرز مظهر للتأثر بالإسلام ، أو بعض عقائده ، كما اعترف المؤرخون »(٣) .

وما أظن البروتستانتية قد أفلحت فى علاج المشكلة ، بدليل انصراف الغرب الآن تماما عن المسيحية ، وإنكار بعضهم لها إنكارا ، وكأنما كانت البروتستانتية ، مبرراً مسيحياً .. للانفلات من المسيحية .

ولقد بشر السيد المسيح ،كما رأينا فيما سبق ، بخاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأورد ذلك إنجيل برنابا صراحة(٤)، ثم جاء القرآن الكريم ، فأيد ما قاله برنابا ، فى قوله تعالى — مثلا :

---

(١) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٣٩، ٤٠ .
(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : القرآن وقضايا الإنسان — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٧٢ ، ص ١٠٥ .
(٣) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (مرجع سابق)، ص١٣٩.
(٤) ارجع الى ص ١٠٨ من الكتاب .

— « وإذ قال عيسى بن مريم : يابنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، مصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات ، قالوا : هذا سحر مبين »(١) .

يقول الشهيد سيد قطب ، فى شرح هذه الآية : « فى هذه الصيغة ، التى تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهى متماسكة فى حقيقتها ، واحدة فى اتجاهها » ، « وهى الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه ، فهو منهج واحد فى أصله ، متعدد فى صوره ، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها ، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة ، حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى ، فتجىء الحلقة الأخيرة ، فى الصورة الأخيرة ، كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد ، فى ضوء تلك التجارب ، وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده ، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان فى جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداداته »(٢) .

كما يرى عبد الله على ، أن بنى إسرائيل بطبيعتهم مرضى القلوب ، ومن هنا كان لابد أن تنتقل الرسالة العالمية منهم .. إلى غيرهم(٣) .

الاسلام وانسانية الانسان :

لاجدال فى الإسلام حول إنسانية الأنبياء ، بكل ما فى (الإنسانية) ، من نقاط قوة ، ونقاط ضعف ، رأيناها فى فصول الكتاب السابقة .

ولا جدال — فى الإسلام — أيضاً — حول إنسانية الإنسان المسلم ، بكل ما تحمله هذه (الإنسانية) ، من نقاط قوة ونقاط ضعف .

( ) قرآن كريم : الصف — ٦١ : ٦ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد السادس (الأجزاء ٢٦ — ٣٠) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م ، ص٣٥٥٦ ، ٣٥٥٧ .

(3) ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur - an, Text, Translation and Commentary, Volume Two, Hafner Publishing Company, New - York, U. S. A., 1946, p. 1540.

والإنسانية فى أساسها ، مجموعة من الحاجات ، يجب أن تشبع .

فالإنسان جسد ، وللجسد حاجات ومتطلبات ، لابد أن تشبع ، ولا يستطيع الإنسان ، مهما سما ، أن يتسامى عن حاجات جسده تلك .

ومن أجل ذلك ، نظم الإسلام إشباع حاجات الجسد تلك ، فأمر المؤمنين به ، بالأكل والشرب ، والاستمتاع بخيرات الله سبحانه ، واعتبر العزوف عن ذلك كله ، كفراً بنعمة الله :

— « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات ، لقوم يعلمون . قل : إنما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها ومابطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »(١) .

— « وهو الذى سخر البحر ، لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون »(٢) .

والبحر ، وما سخره الله سبحانه لعباده فيه ، ليس إلا (واحداً) من الأفضال ، التى لا يحصيها عد ، والذى تفضل الله بها على الإنسان ، ليتمتع بها ، ويستمتع فى حياته ، ويقر بنعمة الله عليه :

— « والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ... والخيل والبغال والحمير ، لتركبوها وزينة ... هو الذى أنزل من السماء ماء .. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ...

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ١٤ .

وهو الذى سخر البحر ... »(١) .

ولم يجعل الإسلام الاستمتاع بخيرات الله على هذا النحو ، لوناً من ألوان الهبوط ، والاستجابة للشهوات ، تحول بين الإنسان وبين التقرب إلى الله .. كما فعلت المسيحية مثلا ، حين اعتبرت أى استمتاع بخيرات الله ، استجابة لشهوات الجسد، وسيراً فى اتجاه مناقض، لما يجب أن تسلكه الروح:

— « اسلكوا بالروح ، فلا تكملوا شهوة الجسد . لأن الجسد يشتهى ضد الروح ، والروح ضد الجسد »(٢) .

— « أيها الزناة والزوانى . أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله ؟ فمن أراد أن يكون محباً للعالم ، فقد صار عدواً لله . اكتئبوا ونوحوا وابكوا . ليتحول ضحككم إلى نوح ، وفرحكم إلى غم »(٣) .

وإنما جعله لوناً من ألوان الشكر لله ، والاعتراف بفضله ، كما سبق .

بل إنه يزيد على ذلك ، أنه يعتبر الرهبانية التى ظهرت فى المسيحية ، رهبانية مصطنعة ، ابتدعوها هم ، ولم يكتبها الله عليهم :

— « ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى بن مريم ، وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ، ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنو منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون »(٤) .

والإنسان روح ، وللروح حاجاته ومتطلباته ، التى لا تقل عن حاجات

---

(١) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٤ — ١٤ .
(٢) العهد الجديد : رسالة بولس إلى أهل غلاطية — ٩ : الإصحاح الخامس: ١٦، ١٧ .
(٣) العهد الجديد : رسالة يعقوب — ٢٠ : الإصحاح الرابع : ٤ ، ٩ ، ١٠ .
(٤) قرآن كريم : الحديد — ٥٧ : ٢٧ .

الجسد أهمية وإلحاحاً ، ولا يستطيع الإنسان — مهما هبط وانحط — أن يغفل حاجات روحه ، وإلا ضل وغوى ، وتحطم كيانه الجسدى ذاته .

وعندما أغرق الغربيون ، فى ظل الحضارة الراهنة ، فى إشباع حاجاتهم الجسدية ، متغافلين حياتهم الروحية ، تمزق كيانهم تمزقاً ، ظهر فى ذلك (القلق) ، الذى صار يستبد بحياتهم ، فيمزق أجسادهم ، تمزيقاً يبدو فى « عسر الهضم ، وقرحة المعدة ، واضطرابات القلب ، والأرق ، والصداع ، وبعض أنواع الشلل »(١) « والانهيار العصبى والجنون »(٢) .

ولقد صار الطب البشرى ، بفروعه المختلفة ، يجد نفسه عاجزاً عن علاج كثير من الأمراض الجسدية ، فى هذا العالم الغربى ، وصار يحيل مرضاه إلى الأطباء النفسيين ، الذين يرون « أن أعظم علاج للقلق ، ولاشك ، هو الإيمان »(٣) ، والذين صاروا يوصفون — نتيجة لذلك — بأنهم « ليسوا إلا وعاظاً من نوع جديد . فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين ، توقياً لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة ، وإنما يوصوننا بالدين توقياً للجحيم المنصوص فى هذه الحياة الدنيا ، جحيم قرحات المعدة والانهيار العصبى والجنون »(٤) ، فقد ثبت أن « الدين يمكن أن يشفى ، بأقوى مما تشفى نظريات أدلر وفرويد ، وأن الإيمان يمكن أن يكون ترياقاً ، أكثر فعالية من العقاقير والكتب »(٥) .

ومن ثم كانت عناية الإسلام بالروح ، وكان سلوكه إلى هذه الروح ،

(١) ديل كارنيجى : دع القلق وابدأ الحياة — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الخامسة — مؤسسة الخانجى بمصر ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٥) مصطفى محمود : لغز الحياة — الطبعة الخامسة — دار العودة — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ١١٥ .

كما سنرى بعد قليل ، هو السلوك القويم ، الذى لا سلوك غيره ، يمكن أن يؤدى إليها ، فى حياة الإنسان .

والإنسان عقل ، وللعقل حاجاته ومتطلباته ، التى لا تقل عن حاجات الجسد وحاجات الروح أهمية ، ولا يستطيع الإنسان — مهما تغابى — أن يغفل حاجات عقله ، وإلا داسته أقدام الأحياء من بنى آدم ، فى الحياة الدنيا ، وضل سبيله إلى الله فى هذه الحياة الدنيا ، فخسر آخرته أيضاً .

ومن أجل ذلك — ربما — كانت أولى آيات القرآن الكريم ، التى تنزل بها الوحى ، على قلب خاتم الأنبياء والرسل ، صلى الله عليه وسلم ، مؤذنة ببدء الوحى ، وبدء الرسالة ، والتكليف بها ، والإعداد لتحمل مسئولياتها وتبعاتها ، هى قوله تعالى :

— « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم »(١) .

والقراءة هى غذاء العقل ، مثلما كان الطعام والشراب هما غذاء الجسد ، ومثلما كان الإحساس بالقرب من الله ، وسلوك السبل إليه ، هما غذاء الروح .

ولم تعد القراءة والاطلاع والمعرفة والبحث والتنقيب ، لوناً من ألوان الزيغ والضلال ، والانحراف عن طريق الله ، على أساس أنها تنافى الإيمان ، بل صارت عبادة ، تفضل غيرها من العبادات ، لأنها توصل الإنسان — بسرعة — إلى الله :

— « ... إنما يخشى الله من عباده العلماء »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : العلق — ٩٦ : ١ — ٥ .
(٢) قرآن كريم : فاطر — ٣٥ : ٢٨ .

ــ « ... قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب »(١) .

ويرى الإمام الشيخ محمد عبده ، أن مذاهب الفلاسفة « تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة ، إلا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل ، من كشف مجهول ، أو استكناه معقول » ، وأنه « ما كان من عاقل من عقلاء المسلمين ، ليأخذ عليهم الطريق ، أو يضع العقبات فى سبيلهم ، إلى ماهدوا إليه ، بعد ما رفع القرآن من شأن العقل ، وما وضعه من المكانة ، بحيث ينتهى إليه أمر السعادة ، والتمييز بين الحق والباطل ، والضار والنافع »(٢) .

فالعلم فى الإسلام ، غذاء العقل ، وهو ليس علم الدين وحده ، وإنما علم الدين والدنيا على السواء ، فكلاهما « مفيد للأمة » ، وإن كان « هذا لا يمنع ، أن يكون العلم بالحلال والحرام ، أشرف العلوم ، التى رغبت فيها الشريعة ، لاتصاله بتصحيح العبادات والمعاملات ، مما يؤدى إلى الاستقامة فى الحياة الدنيا ، والنجاة فى الآخرة »(٣) — ولكنه لا يعنى انحطاط مستوى العلوم الدنيوية ، لأنها السبيل إلى قوة المسلمين فى حياتهم الدنيا ، التى يحرص الإسلام عليها حرصاً تاماً ، حتى إنها — فى رأى المرحوم عباس العقاد — « علم أعم من العلم الذى يراد لأداء الفرائض والشعائر ، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام ، إذ كان خير عبادة لله ، أن يهتدى الإنسان ، إلى سر الله فى خلقه ، وأن يعرف حقائق الوجود ، فى نفسه

---

(١) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٩ .

(٢) الأستاذ الإمام ، الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد (مرجع سابق) ، ص ٢٠ .

(٣) الدكتور مصطفى السباعى : اشتراكية الإسلام — دار ومطابع الشعب — ١٩٦٢ ، ص ١٠٣ .

ومن حوله »(١) .

بل إنه — بهذا العلم الدنيوى — فى رأى البعض — كرم آدم ، يوم خلقه ربه ، وبه كان « أهلا لرسالة الاستخلاف فى الأرض ، يعمرها ، ويرقى بالحياة فيها ، على هدى ربه ، ووفق نهجه وتوجيهه »(٢) ، ومن ثم كان العقل ، هو « الخاصية ، التى تجعله إنساناً »(٣) .

والإنسان فى الإسلام ، ليس إلا (محصلة) لهذا الجسد والروح والعقل ، ومن « هذه القوى » — على حد تعبير المرحوم عباس العقاد — تتكون « (الذات الإنسانية) ، فى حالة من حالاتها ، ولا تتعدد (الذات) الإنسانية ، بأية صورة من صور التعدد »(٤) .

غير أن « (الذات) الإنسانية ، ليست محصلة (حسابية) لهذه القوى ، والمواهب والملكات ، « وإنما هى محصلة (جدلية) لها »(٥) ، بمعنى أننا قد نرى النزعة الروحية هى الطاغية على هذه الذات ، كما رأينا فى حالة الأنبياء والصالحين ، فى هذا الكتاب ، وقد نرى النزعة العقلية هى الطاغية على هذه الذات ، كما نرى فى حالة المفكرين والفلاسفة ، وقد نرى النزعة الجسدية

---

(١) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية — الطبعة الأولى (المؤتمر الاسلامى) — دار القلم ، ص ٨٦ .

(٢) محمد شديد : منهج القرآن فى التربية — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، ص ٣٢٦ .

(٣) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ، معجزات الرسول ، إعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الإسلام — إعداد وتقديم أحمد فراج — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٩٧٥ ، ص ٤٠ .

(٤) عباس محمود العقاد : الإنسان ، فى القرآن الكريم — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٣٧ .

(٥) دكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة فى الإسلام » — المقولة الثانية من : فى التربية المعاصرة — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص ٤٩ .

هى الطاغية عليها ، كما نرى فى حالات الكثيرين من الناس ، الذين يملأون الأرض من حولنا .

ومن ثم لا تتحقق (إنسانية) الإنسان ، فى دين من الأديان السماوية ، ولا فى فلسفة من الفلسفات ، القديمة والحديثة ، بذلك الكمال ، الذى تتحقق به فى الإسلام ، وذلك لأنه خاتم أديان السماء ، ومن ثم كان لابد أن يكون أكملها وأتمها ، ولأنه دين منزل من عند الله ، خالق هذا الكون ، وخالق الناس جميعاً . والفلاسفة مهما بلغت عبقريتهم ، لايعدون أن يكونوا من هؤلاء الناس ، الذين خلقهم الله سبحانه — أقروا بذلك أم أنكروه ، فتلك قضية أخرى ، تخرج عن مجال بحثنا هنا .

الفصل الخامس

أنبياء الله . . . والحياة المعاصرة

تقديم :

وردت قصص الأنبياء والرسل عليهم السلام ، فى القرآن الكريم ، فى مواضع كثيرة . ووردت بعض هذه القصص تفصيلية ، كقصة موسى ، وقصة يوسف ، وقصة إبراهيم ، وورد بعضها مقتضباً وسريعاً ، واكتفى — بالنسبة لبعض الأنبياء والرسل — بالإشارة إلى اسمه فقط ، كرجل من أصحاب الرسالات . . فى هذه الحياة .

بل إن بعض هؤلاء الأنبياء ، لم يرد لهم ذكر فى كتاب الله .

ولم يرد ذكر الأنبياء والرسل ، عليهم السلام ، فى القرآن الكريم ، بوصفه كتاباً من كتب التاريخ ، أو السير ، التى تهتم بحياة هؤلاء الأنبياء ، فى حد ذاتها ، وإنما ورد ذكرهم ، فى مقام العظة والعبرة ، ليبين أنها . . حياة متصلة ، يدور فيها صراع بين الحق والباطل ، وينتصر فيها الحق فى النهاية ، لأن الله يدعمه ، وما الأنبياء هنا ، إلا رمز لهذا الحق ، الذى يدعون إليه ، ويجمعون الناس حوله ، ويحاربون الباطل تحت لوائه .

ويؤكد كل مقام ، يرد ذكرهم فيه ، أنهم بشر ، ممن خلق الله ، وأن فيهم — بسبب بشريتهم تلك — كما سبق — نقاط قوة ، ونقاط ضعف ، وأن (ذواتهم) — برغم ذلك ، كانت أقرب إلى الكمال ، بسبب (النزعة الروحية) الطاغية عليها ، والتى تجعل بينها وبين الله (خطاً ساخناً) ، لا ينقطع أبداً .

ومن ثم ورد ذكر كثير من الأنبياء ، فى القرآن الكريم ، فى أكثر من مكان منه ، وبأكثر من مناسبة ، حيث نرى فى كل مرة جديداً ، يتعلق بكل واحد منهم ، وذلك لأن المقصود من القص فيه ، ليس مجرد السرد التاريخى ، كما نرى فى (التوراة) ، وإنما هو العظة والعبرة ، التى يمكن أن يخرج بها قارئ القرآن من القصة ، على الشكل الذى رويت به ، ومن الزاوية التى تم سرد القصة من خلالها ، وفى ضوئها .

ومن هنا ، تأتى — فى نظرى — أهمية دراسة الأنبياء والرسل ، فى حياتنا المعاصرة ، فالإنسان المعاصر يدعى أنه ينشد الكمال ، ومع ذلك ، فالسلوك اليومى لهذا الإنسان ، يدل على أنه أبعد ما يكون عن هذا الكمال الذى ينشده ، ومن ثم صار يعيش ضحية القلق ، والذلة ، والهوان .

وإذا كان الأنبياء والرسل ، قد نزلوا فى أزمنة وأمكنة مختلفة ، بحسب العلة التى ظهرت فى الزمان والمكان ، نتيجة انقطاع الصلة بين الإنسان وربه ، فقد تجمعت هذه العلل جميعاً ، فى هذا القرن العشرين ، الذى نعيش فيه . ومن ثم كانت دراستهم جميعاً ، ضرورية لنا اليوم ، أكثر مما كانت ضرورية فى أى وقت مضى ، حتى يستطيع الإنسان المعاصر ، أن يخترق (الحجب) و(الظلمات) ، التى صار يعيش تحتها ، وهو يحسب أنه يعيش فى عصر (الحضارة والمدنية) ، فصار شقياً بهذه (الحضارة والمدنية) ، وكان مفروضاً أن تودى إلى سعادته .

ولنستفيد من حياة هؤلاء الأنبياء والرسل ، فى حياتنا المعاصرة ، أرى أن نخرج منها بعظات وعبر محددة ، نرى — من خلالها — كيف نرقى بحياة القرن العشرين ، إلى المستوى اللائق بالإنسان فيه ، بعد أن تمكن هذا الإنسان من اقتحام الفضاء ، ولكنه عجز عن أن يقتحم نفسه ، ليستكشفها ،

ويطهرها من الظلم والظلام ، الذى علق بها ، كأثر من آثار هذه المادية الغليظة . . . القاسية .

العبودية لله :

وتكاد رسالات الرسل والأنبياء جميعاً ، أن تدور حول هذا المحور الأساسى ، ثم تتفرع - بعده - إلى محاور أخرى ، متصلة به ، ومترتبة عليه ، كما رأينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب(١) .

كانت العبودية لله ، فى المجتمعات التى أرسل إليها هؤلاء الأنبياء والرسل ، تبهت فى النفوس ، إما بفعل حاكم مستبد طاغية ، أو لسيطرة الشهوات على النفوس ، أو لأى سبب آخر ، يتصل بحياة الناس ، يضعف من (قوتهم الروحية) ، حتى تموت هذه القوة ، فيأتى النبى أو الرسول ، ليبث الحياة من جديد ، فى هذه (القوة) ، فتضىء حياة الإنسان من جديد .

أى أن التوازن اللازم بين قوى الإنسان وملكاته ومواهبه ، كان (يختل) ، فكان الرسول يأتى ، ليزيل أسباب هذا الاختلال ، فتستقيم حياة الإنسان ، بعودة ذلك التوازن ، إلى الحياة الإنسانية .

ولأسباب كثيرة ، ليس الآن مجال ذكرها ، بهتت هذه الفكرة ، فى حياة الإنسان المعاصر ، فبهتت حياته كلها ، رغم التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يعيشه ، وصار يعيش حياة قلقة قلقا قاتلا ، يدمر فيها نفسه بنفسه ، كما رأينا فى نهاية الفصل الماضى(٢) — وذلك لأن الإحساس بالعبودية لله ، أو الدين « حقيقة كونية ، لا يستخف بها عقل ، يفقه معنى ما يراه من

---

(١) ارجع إلى ص ٢٩ ، ٣٠ وما بعدهما من الكتاب .

(٢) ارجع إلى ص ١٢٥ من الكتاب .

ظواهر هذه الحياة »(١)، وأن الإنسان يستشعر « بغريزته ، وجود قوة أعلى،هى التى خلقت العالم ، وهى التى تقوده إلى مصير خفى »(٢) ، وأن هذا الاستشعار ، « يسرى فى كل خلية من خلايا جسمه ، وعندما يفتقد إنسان ما ، هذا الشعور ، يحس بفراغ عظيم »(٣). وربما كان هذا الفراغ ، هو مصدر ذلك القلق القاتل ، الذى يعيشه الإنسان المعاصر ، وتعرضنا له من قبل .

ولنتصور هذه الأرض ، التى نعيش عليها ، وقد فقدت اتصالها بالشمس ، وتوقفت عن الدوران حولها . إن ذلك معناه ، أنها ستصير فى مهب الريح ، لأن هذا الاتصال بالشمس ، هو الذى يجعلها تدور حولها ، على نظام معين رتيب ، على نحو ما نشاهد .

ولو فقد الإنسان اتصاله بالله ، لصار كهذه الأرض ، عندما تفقد اتصالها بالشمس .

واتصال الأرض بالشمس على النحو الذى تتصل بها به ، يعنى تبعية الأرض — وأخواتها من أفراد المجموعة الشمسية — لهذه الشمس ، ولكنها تبعية تنتظم بها حياة الأرض ، واستمرارها وتماسكها ، واستمرار الحياة عليها .

وكذلك اتصال الإنسان بالله ، يجب أن يتم على هذا النحو ، وإلا عاش فى قلق قاتل ، كذلك القلق القاتل ، الذى يعيش الإنسان المعاصر ، غارقاً فيه ، وهو لا يدرى له سبباً .

---

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الإسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٧ — من المقدمة .

(٢) الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترق الطرق — نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين — دار الشروق — ١٩٧٥ ، ص ٣١ .

(٣) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى (مرجع سابق) ، ص ١٥٤ .

فليس التقدم المادى ، هو سبب شقاء الإنسان المعاصر ، وإنما شقاؤه يعود إلى بعده عن الله الواحد الأحد ، الذى يستمدمنه الطمأنينة ، وبدونه : لا طمأنينة ولا استقرار ، ولا تماسك نفسى . « إن الماديين غفلوا عن حقيقة هامة فى الحياة الإنسانية ، وهى (الروح) ، وانكبوا على وضع قواعد هذه الحياة ، بمعزل عنها تماماً » ، بينما « مسألة (الإيمان بالله تعالى) ، تؤكد (إنسانية الإنسان) ، ومسألة (المادية) ، تسلبه أخص خصائصه ، وأسمى مزاياه »(١) .

ويبدو أن موقف الماديين الغربيين ، من مسألة العبودية لله هذه ، يعتبر (رد فعل) لموقف آباء الكنيسة ، من قضية الفكر عموماً ، فى العصور الوسطى ، فلقد وقفوا من هذه القضية موقفاً غاية فى التشدد ، شبيهاً بذلك الموقف الذى وقفوه من قضية تأليه السيد المسيح ، التى سبقت الإشارة إليها(٢) .

ومن أجل هذا الفرض — فرض آراء الكنيسة على جماهير المسيحيين بالقوة — أنشئت محاكم التفتيش .

ويعرض لنا الدكتور عبد المحسن صالح ، صورة من هذا الإرهاب ، الذى مارسته الكنيسة ، عندما أحست عجزها عن تفسير بقع دموية ، على قربان موجود بإحدى الكنائس ، فعالجت هذا العجز ، بانتهاز الفرصة ، لسفك دماء خصومها والمعارضين لها — فى « عام ١٣٢٩ ميلادية » ، « ظهرت البقع الدموية ، على القربان الموجود فى بعض كنائس ألمانيا » ، « وفكر المفكرون » ،

---

(١) الدكتور مصطفى الرافعى : الإسلام ومشكلات العصر — الطبعة الأولى — دار الكتاب اللبنانى — بيروت — ١٩٧٢ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ارجع إلى ص ١١٧ — ١١٩ من الكتاب .

« وهداهم تفكيرهم، إلى أن المسيح قد عاد إلى الأرض، ليطالب بإراقة دماء المشعوذين والمضللين، الذين لا يحترمون تعاليم الدين.

وهنا قامت الفتنة الجاهلة، وانتهت بحرق وإراقة دماء حوالى عشرة آلاف برىء، فى فرانكفورت وفورتزبرج ونورمبرج وغيرها »(١).

وبعد خمسين عاما، وفى سنة ١٣٨٣، تكرر ظهور البقع، وأراد رجال الدين تكتم الأمر، ولكنه انتشر، فاضطروا إلى تفسيره، واتخذ التفسير « هذه المرة، نغمة أخرى (لقد عاد المسيح، وتقمص القربان، وأوحت الشياطين إلى الملحدين والسحرة والفاسقين، بهذا النبأ العظيم، فجاءوا بالإبر والدبابيس، فى غفلة من رجال الدين، ووخزوه، فأدمت الوخزات جسمه الطاهر، وانبثقت من أجل هذا الدماء).

وارتفعت النداءات (لابد من الانتقام... سنريق الدماء الكثيرة، مقابل تلك الدماء الطاهرة القليلة).

وجمع الناس مرة أخرى، آلاف الضحايا، وتكررت المأساة، على هيئة مذبحة دامية، أو نيران مشتعلة، حرقتهم » (٢).

ولم تكن هذه البقع - كما ثبت سنة ١٨١٩ - أكثر من صبغ أحمر، تفرزه ميكروبات، فى نشا الرغيف. ولكنها كانت فرصة، انتهزها آباء الكنيسة، للانتقام ممن لا يريدون الخضوع لهم من الأوربيين.

وكان نصيب العلماء من هذه المجازر.. كبيراً.

---

(١) الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة — رقم ٦٢ من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول يونية ١٩٦٢، ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

وموقف الكنيسة ورجالهـا من العالمين المشهورين ، كوبرنيكس وجاليليو ، مشهور (١) .

وقد قدر من عاقبته محاكم التفتيش ، بأن عددهم يبلغ ثلثمائة ألف ، احرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء ، وكان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو » ، « حكمت عليه بالموت ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعني ، أن يحرق حياً ، وكذلك كان » (٢) .

وما أن قامت ثورة الإصلاح الديني في الغرب سنة ١٥١٥ ، وبدأ عرش الكنيسة في الحياة العامة الأوربية يهتز .. وبدأ رجال العلم يحتلون لهم منزلة عظمى ، خاصة بعد الثورة الصناعية ، في منتصف القرن الثامن عشر ، حتى بدأ رجال العلم — كما يبدو — ينتقمون لآبائهم العلميين ، (فيثورون) على كل ما يتصل بالدين ، من قريب أو من بعيد ، وصارت شريعة هؤلاء العلميين « الماديين ، المنكرين لله ، هي إعلان الحرب على الله ، والمؤمنين به » (٣) .

وقد نال السيد المسيح ذاته من هذه الحرب الكثير ، فقد صاروا ينكرون أنه وجد ، وينكرون رسالته ، ويرجحون « القول بأن أخبار المسيح ، بقية من بقايا الديانات الشمسية » ، « في ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين » (٤) ، مستدلين على قولهم هذا ، بمجموعة

(١) ارجع إليه بشيء من التفصيل — في :

— SAGAN, CARL and LEONARD, JONATHAN NORTONand the Editors of LIFE : Planets; LIFE Science Library, Time Life International (Nederland) N. V., 1967, pp. 13, 14

— دكتور عبد الحميد أحمد أمين : الطاقة الذرية ، ماضيها وحاضرها ، ومستقبلها — رقم (٦) من (الألف كتاب) — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٦ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (مرجع سابق) ، ص ١٩٢ .

(٣) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا (مرجع سابق) ، ص ٩ .

(٤) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، في التاريخ ، وكشوف العصر الحديث (مرجع سابق) ، ص ١٠٣ .

من الحجج والبراهين ، منها عدد تلاميذه (١٢)، وعيد الميلاد ،ويوم الأحد، وغيرها .

غير أنه إذا كان الدين المسيحى قد ساءت علاقته بالعلم فى أوربا ، « لأنه هكذا كان عند الأوربيين » (١) ، فان علاقة الدين الإسلامى بالعلم لم تسؤ ،بل كانت مزدهرة ، فقد كان العلم ـ ولا يزال ـ فى نظر الإسلام ـ مؤدياً إلى الله ، وإلى الإقرار بالعبودية له .

ويعرض لنا محمد قطب ، مقارنة بين المسيحية والإسلام فى هذا المجال ، يرى فيها — بالنسبة للغرب المسيحى — أنه « من أجل هذه الوثنية فى حقيقتها — ولو تدينت فى ظاهرها — من أجل هذه الروح النافرة من العقيدة ، المتكبرة على العبادة ، نجد هذه المفارقة العجيبة ،بين الحسن بن الهيثم فى الإسلام — ودارون فى أوربا . فبينما الحسن بن الهيثم ، وهو يكتب فى البصريات — فى موضوع علمى بحت جاف ، لا ترفرف حوله نداوة المشاعر، ولا أنوار العقيدة ، يبدأ حديثه باسم الله ، ويحمده ، ويطلب منه التوفيق ، نجد داروين ، وهو يكتب عن (الحياة) و (الأحياء) و (التطور) ، عن موضوع يشهد بمعجزة الخلق ، ويكشف عن يد الخالق المبدعة ، فى كل خطوة ، ويستجيش الوجدان، بالخضوع والعبادة — نجده ينفر من ذكر الله، ويروح يستتر فى (الطبيعة) ، التى يقول إنها تخلق كل شىء ، ولا حد لقدرتها »(٢) .

ومن ثم تكون العبودية لله مطلوبة ، ولكنها مطلوبة على الطريقة الإسلامية ، التى ترى الإله الجدير بهذه العبودية ، هو الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا شريك له ، والذى « لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام (مرجع سابق) ، ص ١٠ .
(٢) محمد قطب : قبسات من الرسول — الطبعة الثانية — دار الشروق، ص ٤٨، ٤٩ .

كفواً أحد »(١) — الإله الذى خلق الإنسان والكون كله ، وفى خلقه هذا، تبدو بوضوح ، وحدة الكون ، ووحدة الوجود ، والذى — نتيجة لذلك - يحترم العقل ، الذى خلقه فى الإنسان ، ويعتبره طريقاً إلى الكمال الإنسانى، وطريقاً — أيضاً — إلى العبودية له سبحانه .

الانسان أولا :

لم يأت نبى من الأنبياء عليهم السلام ، إلا وهدم الحياة الاجتماعية هدماً ، ليقيم على (أنقاضها) ، حياة اجتماعية جديدة ، تقوم على الإيمان بالله ، والعبودية له . وكان ذلك يحدث عادة ، فى فترة زمنية قياسية ، لم تحدث فى أية (ثورة) إنسانية ، قام بها بشر ، من غير هؤلاء الأنبياء .

ولم يكن الأنبياء لينجحوا فيما أرادوا الوصول إليه ، بهذه السرعة والجذرية ، ولم تكن رسالاتهم لتخلد على هذا النحو الرائع ، « إلا لأن (النفس الإنسانية) كانت موضوع عملها ، ومحور نشاطها ، فلم تكن تعاليمهم قشوراً ملصقة ، فتسقط فى مضطرب الحياة المتحركة ، ولا ألواناً مفتعلة ، تبهت على مر الأيام »(٢) .

وإذا كانت البشرية اليوم تعانى القلق ، بسبب مسلكها المادى ، الممعن فى ماديته ، المنكر تماماً لسر وجوده ، وهو الله سبحانه ، فإنه لا شفاء لها من هذا القلق ، وما يترتب عليه من آثار ضارة مدمرة ، لكل منجزات الإنسان الحضارية والتكنولوجية ، بعودة الإنسان من جديد إلى سكنى الكهوف والجحور ، ليبدأ السير فى طريق الحضارة ، من أول السلم الحضارى — فإنه لامنقذ لها من ذلك كله ، سوى بالعودة إلى الله .

---

(١) قرآن كريم : الإخلاص — ١١٢ : ٢ ، ٣ .

(٢) محمد الغزالى : خلق المسلم — الطبعة الثانية — مطابع قطر الوطنية — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤م ، ص ٢١ .

وليس هناك من سبيل إلى العودة إلى الله ، سوى سبيل الأنبياء والرسل.

ويرى الشهيد سيد قطب ، أن « البشرية اليوم » « تقف » « على حافة الهاوية .. لا بسبب التهديد بالفناء ، المعلق على رأسها ، فهذا عرض للمرض ، وليس هو المرض ... ولكن بسبب إفلاسها فى عالم (القيم) ، التى يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية فى ظلالها نمواً سليما ، وتترقى ترقياً صحيحاً »(١) ، وأنه - نتيجة لذلك — صارت « الدعوة الإسلامية اليوم ، حاجة بشرية عامة ، قبل أن تكون حاجة الوطن الإسلامى » ، وأنه « سواء كانت البشرية تحس هذه الحقيقة ، أم لاتحسها ، فإن هذا لا يغير من وضعها شيئاً ، فحاجة المريض إلى الطب والعلاج ، لا تتوقف على شعور المريض بهذه الحاجة ، بل إنه كثيراً ما يرفض تناول الدواء ، وكثيرا ما ينفر من الطبيب ، وكثيرا مايدعى الصحة والقوة ، وهو أشد ما يكون حاجة إلى الطبيب والدواء »(٢).

ولعل هذا يفسر لنا تلك الحرب الضارية ، ضد الإسلام ، التى لم يجتمع المسيحيون واليهود إلا عليها ، رغم ما بين الطرفين من عداوة عميقة ، منذ فجر التاريخ المسيحى — والتى لم تجتمع الرأسمالية والشيوعية إلا عليها ، رغم ما بينهما من حرب معلنة وخفية .إنها حرب مرجعها إحساسهم العميق ، بأن فى الإسلام الدواء لمرضهم — بل لأمراضهم .. وهم يرفضون إلا المرض ، ويدعون أنه الصحة ، شأن كل مريض ، مهما كان نوع المرض الذى يهاجمه .

وقد سلك الأنبياء والرسل سبيل الإنسان الفرد ، فاتخذوا من هذا الإنسان الفرد ، منطلقهم للتغيير ، وأصلحوا العلاقة بين هذا الإنسان وربه ، فصلحت العلاقة بين المجتمع وبين الله سبحانه ، فى النهاية .

---

(١) سيد قطب : معالم فى الطريق — ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م ، ص ٣ .

(٢) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامى — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م ، ص ٥ — من المقدمة .

والغريب ، أن النظم والأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة ، قد اتخذت نفس السبيل ، لتغرس فى المجتمع المعاصر جرثومة الشرك ، وتقوده — فى النهاية — إلى ما يعانيه من عدمية وقلق قاتل ، وأنها نبذت ذلك الأسلوب الجماعى — البدائى — الذى كانت الكنيسة الكاثوليكية تتخذه فى العصور الوسطى ، فأدى إلى تمرد عليها .

وتسلك النظم والأيديولوجيات المعاصرة — إلى ذلك — سبيل التربية، فمن خلال مناهج التعليم المنظم ، والتعليم الإلزامى بصفة خاصة ، تزرع فى النفوس — منذ الصغر — ما تريد غرسه .

وقد انتقلت إلينا نحن ، فى العالم الإسلامى ، هـذه النظم التعليمية (المعاصرة) ، لقهر العالم الإسلامى من داخله ، بعد أن ثبت للعالم الصليبى، استحالة القضاء على الإسلام بالحرب ، فإذا « لم يكن السيف قادرا على السيطرة على المسلمين ، فليكن ذلك عن طريق الكلمة »(١) — على حد تعبير أنور الجندى . ولذلك نجد « كتب فلسفة التربية فى بلادنا العربية والإسلامية — على قلتها — لا تزال تستمد أفكارها الرئيسية ، وتعالج موضوعاتها ، من وجهة نظر غربية صرفة »(٢) .

ومن خلال هـذه النظم التعليمية ، التى توصف (بالعصرية) ، استطاعت الصليبية أن تزرع (جرثومتها)، فى قلب العالم الإسلامى ، بدليل ما يعيشه هذا العالم اليوم ، رغم أن مصادر الثروة الطبيعية مركزة فيه ، ورغم وسطيته ،

---

(١) أنور الجندى : التربية وبناء الأجيال ، فى ضوء الإسلام — (رقم) ١٦ من (الموسوعة الإسلامية العربية) — الطبعة الأولى — دار الكتاب اللبنانى — بيروت — ١٩٧٥ ، ص ١٢ .

(٢) عمر محمد التومى الشيبانى : فلسفة التربية الإسلامية — الطبعة الأولى — الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان — طرابلس — ١٩٧٥ ، ص ٢٤ .

واحتياج العالم المتقدم كله إليه ، لذلك — من ذل وهوان ، وتبعية مخجلة للبلاد المتقدمة — رأسمالية كانت أو شيوعية .

أى أن النظم والفلسفات والأيديولوجيات المعاصرة ، قد استفادت من هذا الدرس — درس الأنبياء والرسل — فاتخذت من الأفراد منطلقاً للتغيير ، وزرع ما يراد زرعه من أفكار ، ومن عقائد وأيديولوجيات .

ولكن استفادتها جاءت مبتورة مشوهة ، لأنها لم تأخذ الدرس كما هو ، وإنما هى أخذته ، على طريقتها (الشيطانية) الملتوية .. المبتورة .

ولو أخذته على طريقة الأنبياء تماما ، لزرعت فى القلوب عبادة الله ، لتزرع فيها — بذلك — بذور الطمأنينة والاستقرار ،دون أن تحرم الناس، فوائد ما حققه الإنسان المعاصر ، من تقدم مادى وحضارى ، لا يمكن إنكاره .

ولكنه الشيطان ، يجرى وراء كل جمال .. ليحيله إلى قبح ، وإلى كل عمار ، ليحيله إلى خراب .

وإذا كانت بلاد الغرب تسير هذا المسار الشيطانى ، وتستفيد به استفادة مادية ، على حساب أكثرية بلاد العالم ،المتخلفة الفقيرة المعدمة ، وكل خيرات الأرض بيديها . . فما بال البلاد الإسلامية تسير فى فلك هذه البلاد . . وهى خاسرة ؟

إنها تسير هذا المسار ، مدفوعة بإرادة حكامها (الوطنيين) .

وبتخطيط هؤلاء الحكام الوطنيين ، أو بسوء تخطيطهم ، ضاعت فلسطين ، وبقية بلاد الشرق الأوسط الإسلامية مهددة بأن تضيع ،كما ضاعت فلسطين.

ولا سبيل أمامهم ، ليثبتوا وطنيتهم ، إلا بالعودة إلى الإسلام ، بل ولا سبيل أمامهم ليحافظوا على عروشهم ، إلا بالعودة إليه .

ويرى الدكتور حسين فوزى النجار ، أنه « إذا كانت الصليبية الجديدة ، التى حملتها الصهيونية ، إلى ديار الإسلام ، قد استطاعت أن تتخذ قدماً لها فى فلسطين ، بعد ثمانية قرون ونصف القرن ، من ظهور الصليبيين أمام بيت المقدس ، عام ١٠٩٩ ، فلأن حال العرب والمسلمين اليوم ، كان كحالهم حينذاك ، فرقة وشتاتاً » ، وأنه « من اليسير أن ينشد الحاكم ما كان ينشده صلاح الدين منذ ثمانية قرون ، من تحقيق الوحدة العربية ، لمواجهة الغزو الصهيونى ، ولكن عليه أن يكون على ما كان عليه صلاح الدين ، لا من حيث رجاحة العقل وبعد النظر فحسب ، ولكن من حيث تمثله لروح الإسلام ، وسمو تعاليمه ، فما كان صلاح الدين ، كما يشهد له مؤرخوه من الفرنجة قبل العرب ، إلا مثالا عالياً للخلق الإسلامى ، مروءة ونجدة ووفاء وحلماً وتواضعاً وطهارة وصلاحا وتقوى » ، وأنه « مثلما كان انتصار صلاح الدين على الصليبيين ، كان انتصار قطز على التتار فى عين جالوت ، بدافع من حمية الإسلام ، فهو الذى أعد للمعركة ، وجمع المسلمين على كلمة واحدة ، هى الدفاع عن روح الإسلام ، والحضارة الإسلامية »(١) .

كما يرى أن الإسلام ، « هو الذى هيأ للفتح الإسلامى ، ودفع المسلمين إليه ، وفى ظله تكونت الدولة الإسلامية ، تحميها روح الإسلام ، وأصالة مبادئه »(٢) .

إن الإسلام هو القوة الوحيدة ، التى تستطيع أن تصمد « للمسيحية المحرفة » ، « ولليهودية الثائرة الموتورة »(٢) ، على حد تعبير العلامة أبى الحسن الندوى ،

(١) الدكتور حسين فوزى النجار : الإسلام والسياسة ، بحث فى الأصول النظرية السياسية ، ونظام الحكم فى الإسلام — مطبوعات الشعب — ١٩٧٧ ، ص ٢٤ — ٢٧ — من المقدمة .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ — من المقدمة .

(٣) أبو الحسن الندوى : تأملات فى سورة الكهف — الطبعة الثالثة — المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م ، ص ١٤ .

اللتين تتعاونان فى تحويل العالم العربى الإسلامى كله ، إلى (فلسطين الشهيدة) ، بعد أن « هبت الوثنية واليهودية والنصرانية ، لمناوأة الإسلام »(١) ، على حد تعبير الإمام الشيخ محمد عبده — وذلك منذ الحروب الصليبية ، حيث لاح لها ، أن الوقت صار مناسبا لها . . للانقضاض عليه .

ومن ثم ، فلا بقاء لنا كمسلمين ، ولا بقاء للحكام المسلمين على عروشهم ، إلا بعودتنا إليه ، قبل أن يجرفنا ويجرف عروشهم الطوفان ، الذى ظهر واضحاً فى ٥ يونية سنة ١٩٦٧ ، والذى نجدهم فيه ، قد « هزمونا بالعلم والإيمان ، لأننا واجهناهم بلا علم ولا إيمان » ، بعد أن « أخذنا من الحضارة الأوروبية القشور ، ملفوفة فى (برشامة) الإلحاد ، وتركنا لهم اللباب »(٢) .

وخير بداية يمكن أن نبدأ بها لوقف النزيف ، ورد الخطر ، هو البدء بالتربية الإسلامية ، إعداداً للأجيال الحاضرة والمقبلة ، حتى تستطيع أن تتحمل تبعاتها الجسام ، التى زاد فى جسامتها تراخى الأجيال الماضية . . فى القيام بما نيط بها من مسئوليات وأعباء .

حراس المسـيرة :

وحديثنا عن التربية الإسلامية ، كضرورة لإعداد الفرد المسلم ، سيراً على نهج الأنبياء والرسل ، يقودنا إلى سلوك آخر ، سلكه هؤلاء الأنبياء والرسل . . على طريق دعوتهم إلى الله .

لقد كان لكل نبى من أنبياء الله ، صحابته وحواريوه ، وكان هؤلاء الصحابة

---

(١) الأعمال الكاملة للامام محمد عبده — جمعها وحققها وقدم لها : محمد عمارة — الجزء الثالث (الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات) — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ ، ص ٢١٧ — من سلسلة مقالات ، بجريدة المؤيد سنة ١٩٠٠م ، الرد على هانوتو ، فى حديثه مع صاحب الأهرام ، الذى نشر فيه) .

(٢) سعد جمعة : الله أو الدمار — الطبعة الثالثة — المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م ، ص ١٣٧ .

والحواريون ، قد أعدوا إعداداً مباشراً ، على يد صاحب الدعوة ذاته — عليه السلام ، وكانوا عادة من السابقين الأولين إلى الاستجابة للدعوة ، وإلى مناصرة الداعية .

وكان هؤلاء السابقون الأولون — عادة — من أنقى الناس قلباً ، حتى لقد وصل بعضهم إلى مرتبة النبوة ، أو إلى مرتبة قريبة منها ، كما نرى فى حالى لوط ، ابن أخى سيدنا إبراهيم ، وهارون ، شقيق سيدنا موسى .

وقلما نجد فيهم مرتداً خائناً ، وما حالة يهوذا الأسخريوطى ، حوارى المسيح وتلميذه ، الذى باع أستاذه ومعلمه لأعدائه ، بثمن بخس ، إلا شذوذ من القاعدة .

فتربية (القادة) ، أو (حراس المسيرة) إلى الله ، نراه هو النظام الشائع ، فى حياة هؤلاء الأنبياء والرسل ، وبفضل هذه التربية ، تستمر المسيرة الإنسانية إلى الله فى سيرها ، حتى يفتر الحماس ، بفتور التربية .

ولقد أفادت النظم والفلسفات والأيديولوجيات المعاصرة ، بهذا النظام النبوى ، فى العمل على استمرارية النظام ، ولكنها أفادت به محرفاً ، على الطريقة (الشيطانية)، التى تنظر بها دائماً إلى كل نظام ... تأخذ منه ما يناسب نفوسها المريضة ، أو تأخذ منه ما تأخذ ، وتحوره، ليناسب نفوسها المريضة.

ولقد كان الكتبة والفريسيون ، أو الكهنة اليهود ، هم الذين قادوا قافلة التصدى للسيد المسيح ، ووراءهم سارت المسيرة اليهودية كلها ، فى التصدى لرسالة الحق والسلام ، كما رأينا فى ختام الفصل الثالث(١) ، ثم كانوا هم الذين قادوا قافلة التصدى — بعد ستة قرون — لخاتم الرسالات ، ولازالوا

(١) ارجع إلى ص ٩٨ وما بعدها من الكتاب .

هم الذين يتصدون لحرب كل حق ، حتى يتحقق حكم بنى إسرائيل — شعب الله المختار — للأرض كلها — كما وعدتهم التوراة ، التى كتبوها بأيديهم ، ووضعوا فيها كل أطماعهم ، وعكسوا كل أمراضهم النفسية .

ولا زال قادة إسرائيل — السياسيون والعسكريون — يتلقون التوجيه ، ويحصلون على البركة ، من هؤلاء الكهنة ، قبل أية خطوة يخطونها ، لتنفيذ أهداف إسرائيل .

كذلك كان الحواريون بعد المسيح ، هم الذين حملوا معهم رسالة المسيحية ، إلى خارج إسرائيل ، عندما لم تجد لها بين بنى إسرائيل مكاناً ، وعملوا على نشرها ، حتى ولو استدعى الأمر تحريفاً فيها ، لتناسب البيئات الجديدة ، وعنفاً فى التعامل مع غير المؤمنين ، عندما صار بأيديهم بعض السلطة ، كما رأينا فى الفصل الماضى(٢) ، وفى هذا الفصل أيضاً(٣) .

أما صحابة محمد بن عبدالله ، صلى الله عليه وسلم ، فتكفى كل واحد منهم مجلدات كاملة . . ويكفى كل واحد منهم فخراً ، أنه استمات فى سبيل حماية الدعوة ، فى حياة الداعية الكريم صلى الله عليه وسلم ، واستمات — من بعده — فى المحافظة عليها نقية ، بلا مطمع ، كما نرى فى حالة كهنة اليهود ، وبعض الحواريين ، وبلا ضغط أو عنف أيضاً .

وهذا المسلك الذى سلكه (حراس المسيرة) ، اليهودية والمسيحية ، سلكه الفلاسفة والأيديولوجيون المعاصرون ، فى الشرق والغرب على السواء ، تشبهاً بآبائهم الدينيين .

ففى الشرق الشيوعى ، نرى « كل شىء فى الاتحاد السوفيتى (مثلا) ينظر إليه من ناحية البوليتيكا Politika ، أى من ناحية خطط الحزب

---

(١) ارجع إلى ص ١١٧ ، ١١٩ من الكتاب .
(٢) ارجع إلى ص ١٣٤ — ١٣٦ من الكتاب .

الشيوعى وأغراضه »(١) ، ونرى لينين يعلن ، أن « القول بوجود المدرسة، خارج دائرة الحياة ، وخارج دائرة السياسة ، هو عين الكذب والرياء»(٢)، ونرى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وهى صفوة الصفوة من الشيوعيين، هى التى يناط بها التخطيط لحركة الحياة فى المجتمع ، والإشراف على تنفيذ المخططات ، بكل دقة وحزم (٣) ، مع اتباع وسائل العنف كلها ،فى مواجهة الخصوم ، حتى لقـــد أعلن لينين ــ أول توليه السلطة سنة ١٩١٧ ــ « ديكتاتورية الطبقة العاملة Dictatorship of Proletariat »(٤) ، وعندما سئل عما يعنيه بالديكتاتورية، أجاب بصراحة، بأنها تعنى عنده «السلطة اللانهائية ، التى تستند على القوة ، لا على القانون »(٥) .

وكانت هذة السلطة الديكتاتورية الممنوحة للجنة المركزية للحزب الشيوعى، معطاة لها ، لأن أعضاءها كانوا هم (حراس النظام وحماته) ، وكانوا هم المسئولين عن « تحطيم البورجوازية ، وبناء الاشتراكية »(٥) .

ويشترط فى كل من يتولى عملا يتصل بالتربية ، سواء فى المدارس والجامعات ، أو فى الإذاعة والصحافة والتليفزيون ، أن يكون ملما إلماماً

---

(١) جورج كاونتس : التعليم فى الاتحاد السوفيتى ــ ترجمة محمد بدران ــ مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(3) CHKHIRVADZE, V.M. (Edited by) : The Soviet Form of Popular Government; Progress Publishers, Moscow, 1972, p. 251.

(٤) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة ــ الطبعة الثانية ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٨ ، ص ٣٨٢ .

(٥) دكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٥٨ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(6) AFANASYEV, A. : Marxist Philosophy, A Popular Outliné; Third Edition, Prozress Publishers, Moscow, 1968, p. 288.

تماماً بالماركسية ، وأن يكون على ولاء تام للدولة والحزب الشيوعى ، والاشتراكية الدولية .

ويحرص الحزب الشيوعى ، على أن يتعلم جميع المتعلمين الماركسية نظريا ، ويمارسوها عمليا ، ابتداء من رياض الأطفال ، وانتهاء بالدراسات العليا ، للحصول على الدكتوراه . فمدرسات الحضانة — فى الصين مثلا — « تدربن على التربية فى مرحلة الحضانة ، وتزودن بدراسة الأيديولوجية الشيوعية . » والتوجيه السياسى للأطفال فى هذه المرحلة المبكرة ، يتم بطريقة ، يهتم فيها الكبار ، بتشريب الصغار ، بعض الاتجاهات والعادات السلوكية ، التى تتفق مع الأيديولوجية العامة »(١) ، تمهيداً لتعليمهم الماركسية — نظرياً — عند الكبر .

فالحراس موجودون فى النظام الشيوعى ، ولولا يقظتهم وحزمهم وعنفهم .. لانهار صرح الشيوعية ، بعد سنوات قليلة من تفجر ثورتها .

وفى الغرب الرأسمالى ، نرى نفس (الحراس) ، يفلسفون النظام الرأسمالى ، ويسهرون على حمايته ، ويستغلون الإذاعة والصحافة والتليفزيون والمدرسة ، فى تعميقه فى النفوس ، بذكاء شديد جداً ، دونه بكثير ذكاء الشيوعيين ، الذين يعتمدون على العنف فى فرض الأيديولوجيا ، كما يعتمدون عليه فى حمايتها . . بينما يعتمد الرأسماليون على الذكاء ، فى فرض المخططات .

(فكهنة) النظام موجودون هنا وهناك ، وإن ظهروا هنا ، وتداروا هناك .

ومفروض أن هؤلاء (الحراس) أو (الحماة) ، موجودون فى ظل الإسلام المعاصر ، كما نرى فى الأزهر ، وغيره من المعاهد الدينية المتخصصة ، ذات السمعة القديمة والعالمية ، والتراث العريق .

---

(١) دكتور أحمد حسن عبيد : فلسفة النظام التعليمى ، وبنية السياسة التربوية (دراسة مقارنة) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٦ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

إلا أن المؤامرات المسيحية / الصهيونية / الوثنية ،قد امتدت إلى هذه المؤسسات ، باسم التطوير مرة ، وبسبب التقصير أخرى ، حتى صارت هذه المعاهد اليوم ،مسخاً مشوهاً .

ثم إن هؤلاء الحراس ، قد تحولوا — بالمؤامرة — من (عقائديين) (دعاة) ، إلى موظفين .

كما أنهم — بالمؤامرة — قد (تقوقعوا) داخل إطار الدراسات الدينية وحدها ، والإسلام دنيا وآخرة ، وليس الإسلام بقاصر على الحلال والحرام وحدهما .

ومن ثم انتزع السلاح من أيدى هؤلاء الحراس ، وقد آن لهذا السلاح أن يعود إلى هذه الأيدى .

الجنــدية :

ولا تعنى الجندية التدرب على السلاح التقليدى وحده ، واستخدام هذا السلاح، حين تدعو الضرورة ، وإنما تعنى الجندية (الإيمان) بمبدأ ، وتمثله ، والتحول فى السلوك ، ليكون الإنسان (صورة حية) له ، والدفاع عنه، بالكلمة، وبالسلاح أيضاً .

ومن ثم فقد كان الحواريون المحيطون بالسيد المسيح جنوداً ، ولو أنهم لم يحملوا سلاحاً ، كما كان المؤمنون بموسى عليه السلام جنوداً ، مع أنهم هربوا جرياً أمام فرعون وجيشه ، ولم يصمدوا للجيش المعادى ، ولم يرفعوا فى وجهه سلاحا .

وأما الجندية ، بمعناها الشمولى الكامل ، فقد ظهرت فى حياة صحابة سيدنا محمد بن عبد الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام ، فقد

تحملوا أذى قريش معه ، ثم حملوا أمانة الدعوة إلى الله فى حياته وبعد مماته ، كما حملوا السلاح معه وبعده ، مهاجمين ومدافعين ، حسبما كان الموقف يستدعى .

والجندية اليوم موجودة ، فى حالات الشيوعية والرأسمالية والصليبية والصهيونية والبوذية ، وغيرها من العقائد والأيدلوجيات المعاصرة ، كما رأينا من قبل ، متمثلة فى الإعداد الأيديولوجى من خلال برامج التربية ، وفى النشر والإعلام والإعلان ، وفى شراء العملاء من البلاد الأخرى ، وفى استقطاب بلاد العالم ، ثم فى تحريك المؤامرات ، وشن الحروب .

ولكن وضع الجندية فى العالم الإسلامى المعاصر ، وضع مثير للضحك ، ومثير للرثاء أيضاً .

إننا بدلا من أن نشجع الدعاة إلى الإسلام فى العالم الإسلامى ، نجد حكومات البلاد الإسلامية ، توجه ضربات قاصمة إلى الحركات الإسلامية ، بدعاوى صحيحة أو باطلة ، « فالمهتمون بالإسلام — فى العالم الإسلامى المعاصر — هم السلعة الوحيدة التى تباع فى (سوق النخاسة الدولية) اليوم ، والمشترون هم الصهيونيون ، ومن يحمونهم من (أبناء الحرة) ، وبأيدى هؤلاء وهؤلاء ... المال ، والقدرة على إسقاط الحكومات ، وإقامة حكومات جديدة »(١) .

وهى قضية لا يمكن فهمها ، إلا بالنظرة إليها نظرة شمولية ، تعرضنا لجوانب عديدة منها ، فيما تحدثنا عنه فى هذا الفصل .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : فى التربية الإسلامية (مرجع سابق) ، ص ١١ ، ١٢ — من التقديم .

وللمسلم أن يفخر بدينه

فى الوقت الذى يرى فيه فريق من علماء النفس ، « أن الدين ، ما هو إلا اضطراب عقلى Mental disorder ، أو مظهر من مظاهر سوء التكيف Maladjustment ، أو اعتقاد زائف Delusion » ، أو « علامة من علامات الجنون Insanity » ، أو « نوعا من أنواع العصاب الوسواسى Obessional Neurosis »(١) — يرى فريق آخر من هؤلاء العلماء ، أن « التدين يمكن » « أن يكون ترياقا ، أكثر فعالية من كل العقاقير والكتب »(٢) ، وأن الإنسان — بطبعه — « حيوان متدين » ، وأنه « بالحياة الروحية » ، « يرتفع تماماً فوق مستوى الحيوان »(٣) ، وأنه بدون هذه الحياة الروحية ، أو بدون التدين ، يهبط الإنسان إلى ما دون مستوى الحيوان ، لأنه يخرج على فطرته ، التى فطره الله عليها ، ويعيش حياته الدنيا — لبعده عن الفطرة — قلقاً شقياً .

وإلى هذا الرأى الأخير ، يذهب ديل كارنيجى ، كما سبق فى كتابنا الأول من السلسلة ، حيث يرى أن (الإيمان) ، صار مفيداً فى علاج كثير من الأمراض العضوية نفسها ، لأن معظم هذه الأمراض العضوية ، يعود — لسبب أو لآخر — إلى فقد هذا الإيمان ، والانغماس فى الحياة المادية — كما رأينا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب (٤) .

---

(١) دكتور محمد جلال شرف ، ودكتور عبد الرحمن محمد عيسوى : سيكولوجية الحياة الروحية ، في المسيحية والإسلام — رقم (٣) من (كتب علم النفس) — منشأة المعارف بالاسكندرية — ١٩٧٢ ، ص ١٧٤ .

(٢) مصطفى محمود : لغز الحياة (مرجع سابق) ، ص ١١٥ .

(٣) الدكتور محمد فاضل الجمالى : تربية الإنسان الجديد (محاضرات فى مبادىء التربية ، ألقيت فى الجامعة التونسية) — الشركة التونسية للتوزيع — ١٩٦٧ ، ص ٣٣ .

(٤) ارجع إلى ص ١٢٥ من الكتاب .

والحياة الروحية — جوهر الدين — هى التى تربط الإنسان بالكون المحيط به ، وبالملأ الأعلى . ومن ثم فهو موهبة ، كموهبة الجسد ، وموهبة العقل . وحظ (الأنبياء) من هذه الموهبة موفور ، وبها يتلقون (الوحى) من ... السماء ، رغم أنهم يعيشون بين الناس ... على الأرض .

« فالوحى فى أساسه هداية وتوجيه ، وبهاته الصفة ، يعين الشخص على أن يتحقق ، أخلاقياً وروحياً ، ويتفتح داخل عالم ، حيث الله يدبر النظام ، ويهيمن على أسراره . ذلك أن سير الكون ، ومصير الإنسان ، لا يضعان لنا مشاكل محيرة ومقلقلة فحسب ، بل يلجان بنا عوالم الغموض والعماء ، وأمام هذا الوضع ، يتجلى دور الوحى ، فى أن يغمر المؤمنين باطمئنان ميتافيزيقى ، وأن يمنحهم الأمل ، فيجعلهم يتغلبون ، بالحياة الروحية ، على التمرد والعبث .

ولا غرو ، أن الأنبياء ، المكلفين بتبليغ الوحى ، ليسوا سوى مرشدين بالنسبة لمجموع الآخرين ، الذين هم أنداد لهم (أونطولوجيا) ، وإخوانهم (إنسانياً) . لكن ميزة الأنبياء المرسلين الكبرى ، هى صلابتهم فى الدفاع عن الحق والخير ، بـ (الدعوة) المستديمة ، وبالسلوك اليومى ، فى كل عمل : إنهم هـــداة ، يجعلون من حياتهم نموذجاً قوياً ، يحمل معه شهادته على نفسه »(١) .

وطالما كان المصدر ، الذى يأخذ عنه الأنبياء ، واحداً ، فإن الرسالات التى أرسلوا بها ، لابد أن تكون واحدة ، لا اختلاف بينها ، ومن يدرس جوهر ديانات السماء جميعاً ، يجد هذا الجوهر واحداً ، لا اختلاف فيه .. وإنما الاختلاف فى بعض الشكليات ، المتصلة بهـــذا الجوهر ، لا فى الجوهر ذاته :

---

(١) الدكتور محمد عزيز الحبابى : الشخصانية الإسلامية (مرجع سابق) ، ص ٦٨ .

— « ... إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون »(١) .

ومن ثم لا يكون منطقياً ، أن يركز دين من الأديان ، التى أتى بها هؤلاء الأنبياء والرسل ، على (الروح) ، كما فعلت المسيحية مثلا ، بينما يركز الآخر على (الجسد) ، كما فعلت اليهودية مثلا ، وإنما المنطقى ، هو أن يكون هناك (توازن) معقول فيها جميعاً ، بين (الروح) و (الجسد) و (العقل) ، لأن هذه الجوانب الثلاثة ، (متكاملة) و (متفاعلة) فى حياة الإنسان ، وأى (اختلال) فى التوازن بينها ، لا يمكن أن يتفق مع (الفطرة) ، أو مع (الطبيعه الإنسانية) ، التى خلق الله سبحانه الإنسان عليها ، ومن أجلها كرمه واستخلفه ... كما يقول بذلك القرآن الكريم ، وكما يقول به العلم الحديث أيضاً .

ولم أقصر ضربى المثل على المسيحية واليهودية وحدهما عبثاً ، وإنما قصرته عليهما لأسباب ، منها أنهما يعدان مثلين متناقضين ، فى نظرتهما إلى الإنسان ، ومنها أنهما هما الدينان السماويان الباقيان حتى اليوم ، من بين الأديان السماوية الكثيرة ، التى جاءت إلى الإنسان ، ومنها أن الحرب القائمة فى العالم اليوم أساساً ، إنما هى حرب مسيحية يهودية / إسلامية ، فقد اجتمع أتباع الدينين السماويين الباقيين مع الإسلام ، على ما بينهما من تناقض ، على حرب الإسلام ، ولم يشهد التاريخ لهما اتفاقاً ، قبل هذه الحرب .

والاختلال فى التوازن بين الجسم والعقل والروح ، لا يدل على اختلال الدين ذاته ، وإنما هو يدل على أن يد (العبث) قد امتدت إليه ، وعلى أن (الكتب السماوية) ، قد صارت (كتباً أرضية) ، أبعد ما تكون عن (نور السماء) ، وأن أتباعها والمؤمنين بها ، قد صاروا أبعد ما يكونون عن

---

(١) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٩٢ .

الهداية ، التى جاءت، من السماء ، على يد النبيين الكريمين ، موسى وعيسى ، عليهما السلام .

وإلى هذه الحقيقة ، يشير القرآن الكريم ، فى أكثر من موضع ، وفى أكثر من مناسبة :

— « ولقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله : إنى معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم ، فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم ، لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم ، إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا : إنا نصارى ، أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون .... لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، قل : فمن يملك من الله شيئا ، إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ؟ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير »(١) .

فللمسلم أن يفخر بدينه .. أنه قد بقى كما هو ، لم تمتد إليه بالتحريف يد ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه الكريم :

— « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : المائدة — ٥ : ١٢ — ١٧ .

(٢) قرآن كريم : الحجر — ١٥ : ٩ .

فالقرآن الذى نزل على قلب محمد ، هو هو القرآن الذى يتلى منذ ذلك اليوم ، وحتى يومنا هذا ، وسيظل هو هو ، حتى تقوم الساعة ، رغم المحاولات المستميتة ، التى بذلت للدس عليه ، والتغيير فيه .

والدين الذى قال به محمد ، هو هو الدين الذى عرفه المسلمون منذ حياته ، وحتى اليوم ، وسيظل هو هو ، حتى تقوم الساعة ، رغم المحاولات المستميتة التى بذلت وتبذل ، للصد عنه ، وللدس عليه ، والتغيير فيه .

وربما عاد سر بقائه وخلوده ، برغم كل المحاولات ، إلى حفظ الله له ، وربما عاد أيضاً إلى أسباب الحياة الموجودة — بطبيعتها — فيه ، والمتوفرة — بطبيعتها — لديه .

فهو دين الفطرة ، ومعنى ذلك أنه دين (الإنسان) ، المتفق مع الطبيعة الإنسانية ، والسائر — مع هذه الطبيعة — نحو الكمال الذى تنشده الإنسانية ، منذ أقدم العصور ، وستظل تنشده ، حتى تقوم الساعة .

ومن هنا كان ذلك الاهتمام غير العادى ، بالرسل السابقين ورسالاتهم ، فى الإسلام ، بوصفهم مثلا عليا للإنسان ، بكل ما فيه من نقاط قوة ، ونقاط ضعف ، وبكل ما فيه — رغم ذلك — من إمكانيات ومواهب ، وبوصفهم استطاعوا أن يقيموا — فى حياتهم — ذلك التوازن المنشود ، بين الجسم والعقل والروح ، ومن ثم كان الإيمان بهم وبرسالاتهم ، شرطا من شروط الإسلام الصحيح :

— « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »(١) .

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٣٥ ، ١٣٦ .

— « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير »(١) .

وهذا الإيمان بالأنبياء والرسل ، لابد — كما سبق(٢) — أن يؤدى إلى الإيمان بالإسلام ، وإلا كان هذا الإيمان غير صادق ، إما نتيجة لتحريف الرسالة ، أو لمجرد (التمحك) ، وادعاء الإيمان بها :

— « قل : آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم و . . . والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٣) .

وللمسلم أن يفخر بدينه ... أنه عندما بقى كما هو ، لم تمتد إليه بالتحريف يد . . إنما كان انتصاراً للدين ، وانتصاراً للفطرة الإنسانية ، وانتصاراً للإنسان ذاته ، فى معركة الحياة التى يخوضها ، ضد أعداء الإنسان ، ممن استزلهم الشيطان واستذلهم .

ومن ثم صارت الحرب ضده — كما سبق فى أكثر من مناسبة — حرباً ضروساً ، من كل الجبهات ، ولكنها حرب يشرف بها الإسلام ، ومن أجلها يحق للمسلم أن يفخر بدينه .

* * *

وإذا كان الإنسان جسماً وعقلا وروحاً ، وإذا كان — بحكم هذه التركيبة فيه — قد صار مربوطاً بالأرض ، من خلال جسده ، متصلا بالسماء ، من خلال

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٨٥ .
(٢) ارجع إلى ص ١١٥ ، ١١٦ وما بعدها من الكتاب .
(٣) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ٨٤ ، ٨٥ .

روحه ، قادراً على أن (ينجذب) إلى أحد القطبين ، أو يختار حداً وسطاً بينهما ، من خلال عقله — فإن المنطق يقول بأن (الوسطية) هى طريق الكمال الإنسانى ، وبأن هذه الوسطية، كانت طريق ديانات السماء ، قبل أن تمتد إليها أيدى التحريف، وبأن هذه الوسطية قد حوفظ عليها بطريقة مثالية.. من خلال منهج ربانى محكم . . فى الإسلام :

— « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ... »(١) .

لقد جنحت بعض الديانات والمذاهب إلى اليمين ، لظروف خاصة بها ، خضعت لها ، ولم تستطع أن تخضعها . . وجنحت بعض الديانات والمذاهب إلى اليسار ، لظروف خاصة بها ، خضعت لها ، ولم تستطع أن تخضعها ... كما رأينا فى تاريخ اليهودية والمسيحية على السواء فيما سبق، على سبيل المثال، فكان مقتل هذه الديانات والمذاهب ، فيما جنحت إليه ، لأنه بعدها عن طريق الفطرة، التى فطر الله الناس عليها، ولكن الإسلام ـ فى هذه القضية ـ يختلف عن كل الديانات والمذاهب السابقة ... المنحرفة ، فهو « يأخذ من اليمين أحسن ما فيه ، ومن اليسار أحسن مافيه ، ثم هو يتجنب مساوئ النظامين ، ثم هو يعطى إضافة من النعمة الروحية ، والإشباع الروحى ، يمنح المسلم سنداً من الغيب ، وخلوداً فى الجنة » (٢) .

وبهذه الوسطية ، التى ظلت جوهر الإسلام ، لم ينحرف عنها ... يحق للمسلم أن يفخر بدينه .

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٤٣ .

(٢) مصطفى محمود : من أسرار القرآن — العدد (١١٥) من (كتاب اليوم) — مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة — سبتمبر ١٩٧٦ ، ص ١٢ .

فهو — به — قادر على أن يعيش حياته الدنيا إنساناً ، دون أن يحس بأنه بعد عن الصراط . . وعلى أن يستمتع بحياته ، دون أن يحس بأنه بعد عن هذا الصراط ، أو بأنه يخسر أخراه ، بسبب استمتاعه بحياته تلك .

فدنياه ملك يمينه ، وأخراه ملك يمينه أيضاً ، طالما ظل لله عبداً ، يحس بهذه العبودية من أعماقه ، ويشرف بها .

ولا تثريب على هذا الإنسان المسلم ، إن هو فقد أسباب دنياه ... فإن صبره على هذا الفقد ، يحيل (جحيم) دنياه إلى (جنة) ، ينعم بها ، كما ينعم الأثرياء، إن لم يزد .

على أن فقدانه لهذه الدنيا — إن هو فقدها — لا يفقده العمل لها ، لأن العمل لها — فى نظره — وبوحى دينه — عمل للآخرة أيضاً .

فهو — بدينه — سعيد فى دنياه ، اغتنى أو افتقر ، قوى أو ضعف ، صح أو مرض . . لأن عبوديته لله تملأ نفسه ، كما ملأت نفوس أنبياء الله ، الذين يؤمن بهم ، فسدت ذلك (الفراغ) القاتل ، الذى يخلقه (التمرد) ، على هذه العبودية لله .

فللمسلم — من ثم — أن يفخر بدينه ، الذى حقق له هذه (العبودية) لله ، فحقق له — بها — سعادة الحياة الدنيا ، وضمن له — معها — سعادة الحياة الآخرة أيضاً ، فلم تكن سعادته فى هذه ، على حساب سعادته فى تلك ، أو العكس ، وإنما كانت السعادتان مكفولتين ، بقدر إحساسه بهذه العبودية لله ، وسيره بمقتضاها .

* * *

والإنسان — فى الإسلام — مخلوق مسئول أمام الله ، بحكم الاستخلاف

الذى كرمه به ربه يوم خلقه واستخلفه ، وهو قادر على القيام بمهام هـذا الاستخلاف ، بحكم ما منح من عقل .

فهو بالجسد ، قادر على أن يشيد ويعمر ، فى هذه الحياة الدنيا ، ويستمتع بما يشيد ويعمر .

وهو بالروح ، قادر على أن يشيد ما يشيد ، وفق الإرادة العليا ، التى يرتبط بها ، من خلال ما زوده الله به من طاقة روحية .

وهو بالعقل ، قادر على أن يختار ، فيحسن الاختيار ، أو يسيئه ، ويستحق بالتالى ، أن يحاسب على حسن اختياره وإساءته .

وقد كان أنبياء الله عليهم السلام ، قدوة له فى القيام بتبعة الاستخلاف هذه .

والاستخلاف ، تشريف للإنسان ، لاشك فى ذلك .

ولكنه — فى الوقت ذاته — يلقى عليه تبعات وأعباء ومسئوليات .

وبقدر قيامه بتلك الأعباء والمسئوليات ، يكون استحقاقه ، لأن يـكون أهلا لذلك الاستخلاف .

وتتلخص تلك الأعباء والمسئوليات ، فى تعميره الأرض ، ونشره الحق والخير والجمال فيها ، من خلال ذلك (المنهج السماوى) ، الذى تبدى أوضح ما يكون ، فى الرسالات التى نزلت من السماء ، تحمل معها النور ، للقطعان البشرية الضالة ، تهديها — به — إلى سواء السبيل .

وقد فهمت هداية القطعان البشرية الضالة ، عند أتباع بعض الديانات السابقة ، على أنها (فرض) لهذا المنهج السماوى بالقوة :

ومن أجل هذا الفرض ، قامت الحروب (المقدسة) ، سنين طويلة .

والمتتبع لتاريخ المسيحية، منذ القرن الرابع الميلادى وحتى اليوم ، يستطيع أن يقف على مدى العنف ، الذى بلغه (دعاة) المسيحية ، مع خصومهم ، أو حتى مع غير المؤمنين بمبادئهم . ويكفى تاريخ محاكم التفتيش وحده، دليلا على هذا العنف، مع غير المؤمنين من المسيحيين ، كما يكفى سقوط الأندلس، دليلا على هذا العنف ومداه ، مع غير المسيحيين .

بل إن تاريخ أوربا ، بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، ليكفى دليلا على هذا العنف ، حتى مع المخالفين فى المذهب الدينى — المسيحى . ولا تزال بقايا هذا التاريخ الدموى المسيحى ، ماثلة إلى اليوم فى أيرلندا ، حيث الصراع الدموى (المقدس) ، على أشـــده ، بين الكاثوليك والبروتستانت .

وإذا كان الأمر يصل إلى هذا الحد من العنف ، فى المسيحية ، رسالة الحب والخير والسلام كما يدعون ، فإنه يصل إلى حد أعلى من العنف ، فى اليهودية ، رسالة القوة والبطش بطبيعتها ، كما يقولون .

وتاريخ اليهود مع السيد المسيح عليه السلام ، ومع خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام . . ثم مع كل مجتمع ، قديم أو حديث ، فتح لهم صدره... خير شاهد على ما نقول .

ثم تاريخهم المـــاثل أمامنا اليوم . . فى فلسطين ، بحيويته ، أصدق وأكثر دلالة .

ولكن هذه الهداية لم تفهم — يوماً — فى الإسلام ، على أنها (فرض) أو (إكراه)، وإنما فهمت — كما يجب أن تفهم — على أنها مجرد هداية وتبليغ :

— « قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون

ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين »(١) .

وفهم الإسلام لقضية هداية القطعان البشرية الضالة ، على هذا النحو ، يدل على ثقته بنفسه ، وبمنهجه ، وهى ثقة لا تستدعى لجوءاً إلى القوة أو العنف ، إلا لرد عدوان قائم ، أو لصد عدوان متوقع ، أو للردعلى معتدين ، لا يفهمون إلا لغة القوة ، وسيلة لتحقيق الأهداف والغايات .

والقوة المادية كأسلوب حوار ، لا يلجأ إليها إلا الضعفاء المرتاعون ، أما الواثقون من أنفسهم ، فإنهم لا ينظرون إلى القوة ، إلا على أنها قوة الحجة ، وقوة الإيمان . ومن ثم تحتل القوة المادية فى حياتهم ، مرتبة ثانية أو ثالثة .

والمتتبعون للتاريخ الإسلامى ، غير متعصبين ضده ، يرون أن الإسلام قد انتشر بمنطق القوة الأول ، لا بمنطقها الثانى . بل إنهم يرون أنه انتقل إلى جنوب شرقى آسيا ، مع بعثات التجار المسلمين ، لا مع بعثات الدعاة المسلمين . وكأنه انتشر هناك بالقدوة والأسوة الحسنة ، لا بالدعوة ، ولا بالكلمة .

فللمسلم أن يفخر بدينه ، الذى جعله يسير فى الدعوة إلى الله ، على سنن الأنبياء ، لا على سنن المتمسحين فى النبوات ، المدعين الدعوة إلى الله ...

وقد سار الأنبياء — فى دعوتهم إلى الله — كما سار هو ويسير ، بالكلمة ، وبالرقة واللطف ، وبالقدوة الحسنة ، لا بالعنف وامتشاق الحسام وقتل الخصوم .

والتاريخ المعاصر ، يثبت — كما يثبت التاريخ الماضى — أن أسلوب العنف قد نفر القلوب من حول الدعوات ، والدعاة ، وأن أسلوب الرقة

---

(١) قرآن كريم : الكافرون — ١٠٩ : ١ — ٦ .

واللطف واللين والقدوة الحسنة ، هو الذى جمع القلوب حول الدعوات والدعاة .

ومن هنا كان رقته ولينه . . فى نظر جنود الشيطان ، هى العنف عينه ، ومن هنا كانت الحروب ، المعلنة والخفية ، تشن عليه من هنا وهناك . وهى حروب تشرفه ، لأنها تدل على أنه على الحق يسير ، ولو سار على غير الحق ، ما كان جديراً بهذه الحرب ، التى تشن عليه .

* * *

وفى دراستنا لحياة الأنبياء — عليهم السلام — فى هذا الكتاب ، رأينا أن لهم منابت مختلفة ، بل متباينة ، وأن هذه المنابت ، كان لها تأثيرها فى (تكوينة) كل منهم ، فمنهم من كان عصبياً ، ومنهم من كان حليما حكيما . . ورغم ذلك ، فقد كانوا جميعاً (عباداً) لله ، ومن هذه (العبودية) ، استحقوا ما نالوه من تكريم وسيادة ونصر ، فى الحياة الدنيا ، ومن تشريف بالجنة ، فى درجاتها العلا ، يوم الحساب ، يوم القيامة .

فهم بشر . . ولكنهم فاضلون ، أولو عزم .

ولو أننا درسنا حياة الناس — كل الناس — فى حياتنا المعاصرة ، لوجدناهم — نفسياً — على شاكلة نبى من هؤلاء الأنبياء ، لا ينقصهم إلا هذا الفضل ، وذلك العزم .

والفضل لم يأت — فى حياة الأنبياء — إلا من السير فى طريق الله ، والإحساس بالعبودية له ، والاعتزاز بهذه العبودية — ولم يأت من مال ، أو من منصب أو جاه ، أو من شرف أصل ومحتد .

والعزم هو الآخر ، لم يأت من قوة أو من جاه أو سلطان ، أو حسب ونسب ، وإنما هو توفر لدى هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، من اعتمادهم على الله ، وتوكلهم عليه ، وسيرهم فى طريقه ، فوفر لهم كل أسباب القوة .

ومن ثم كان بمقدور كل إنسان يعيش فى عالمنا المعاصر ، أن يكون نبياً ، على نحو من الأنحاء ، لأنه ، إن لم يستطع أن يكون نبياً ، فسيتحول إلى شيطان ، وهو لايدرى .

وهل يستطيع الإنسان — قديمـــاً كان أو معاصراً — أن يعيش بين بين ؟ !

إنه — بحكم تكوينه — إما عبد لله ، وإما عبد للشيطان .

وإذا كان لله عبداً ، فهو يسير فى طريق الله — طريق الأنبياء والرسل، وإذا كان عبداً للشيطان ، فهو يقف فى طريق الله ، مع الشيطان ، وزبانيته .

فللمسلم — أخيراً — أن يفخر بدينه ، الذى مكنه من أن يعرف القضية — قضية الحياة المعاصرة — وأبعادها . . رغم أنه محسوب — فى عالمنا المعاصر — من المتخلفين ... بينما لم يستطع غيره ، ممن يحسبون من المتقدمين فى عالمنا المعاصر .. أن يعرفوا هذه القضية وأبعادها .

إنهم يعتبرونها — من منظور حياتهم المادى — قضية تقدم أو تخلف .. غنى أو فقر .. قوة أو ضعف .. شرق أو غرب ...

للمسلم أن يفخر بدينه ، متمثلا قول ربه سبحانه ، فى محكم كتابه :

— « قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً »(١) .

وصحيح أن المسلم يعانى من هذا الفهم للقضية . . على هذا النحو . . حرباً ضارية ، تتفق ضده فيها ، كل القوى ، التى بيدها وسائل التدمير كلها، فى عالم اليوم ..

---

(١) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ١٠٣ — ١٠٥ .

ولكن التدمير لا يخيفه .. كما لم يخف من قبله أى نبى من أنبياء الله .

إنه المهر الغالى للجنة ، التى وعد الله بها عباده المتقين .

ولقد عرف هذا المسلم ، الذى يحق له أن يفخر اليوم — الطرد من الأرض ، كما حدث فى فلسطين ، والاستضعاف فى الأرض ، كما حدث فى الجزائر ، وكما يحدث الآن فى الفليبين ، والاستذلال من الحكومات التى توصف — خطأ ومغالطة — بالوطنية ، كما يحدث فى معظم أنحاء العالم الإسلامى . . ولكنه عرف ـ مع وطأة المحن ـ كيف يستعذب حياة السجن ، وحياة النفى ، وحياة الحرمان ، مما لا يتمتع به غير المسلمين .. تماماً كما عرف ذلك من قبله ، الأنبياء وحوار يوهم . . .

وغداً . . فى هذه الحياة الدنيا . . ستكون فرحة هذا المسلم ، بنصره على أعداء الإنسانية ، كما ستكون فرحته فى الحياة الآخرة أشد :

— « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ، فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار »(١).

---

(١) قرآن كريم : غافر — ٤٠ : ٥١ ، ٥٢ .

المراجع

اولا : المراجع العربية :

١ — دكتور ابراهيم أحمد العدوى : التاريخ الإسلامى ، آفاقه السياسية، وأبعاده الحضارية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٦ .

٢ — ابراهيم خليل أحمد : محمد ، فى التوراة والإنجيل والقرآن — الطبعة الثالثة — مكتبة الوعى العربى (بدون تاريخ) .

٣ — أبو الأعلى المودودى : المصطلحات الأربعة فى القرآن : الإله — الرب — العبادة — الدين — دار التراث العربى للطباعة والنشر — ١٩٧٥ .

٤ — أبو الحسن الندوى : تأملات فى سورة الكهف — الطبعة الثالثة — المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٥ — أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

٦ — دكتور أحمد حسن عبيد : فلسفة النظام التعليمى ، وبنية السياسة التربوية (دراسة مقارنة) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٦ .

٧ — دكتور أحمد زكى صالح : نظريات التعلم — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٧١ .

٨ — الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترق الطرق — نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين — دار الشروق — ١٩٧٥ .

٩ — الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده — جمعها وحققها وقدم لها : محمد عمارة — الجزء الثالث (الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات) —

الطبعة الأولى — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت — أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ .

١٠ — السيد أحمد الهاشمى : السعادة الأبدية ، فى الشرائع الإسلامية — الطبعة الرابعة — دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان — ١٩٧٣ .

١١ — العهد الجديد .

١٢ — العهد القديم .

١٣ — ألكسيس كاريل : الإنسان ، ذلك المجهول — تعريب شفيق أسعد فريد — مكتبة المعارف — بيروت — ١٩٧٤ .

١٤ — آن أنستازى : « طبيعة الفروق الفردية » — ترجمة الدكتور مختار حمزة — الفصل الرابع عشر من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية — التأليف بإشراف : ج . ب . جليفورد — والترجمة بإشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الثانى — الميادين التطبيقية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٦ .

١٥ — إنجيل برنابا ، ترجمه من الانكليزية : الدكتور خليل سعادة — طبع على نفقة مطبعة المنار ، لصاحبها : السيد محمد رشيد رضا — مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده — القاهرة — ١٩٥٨ .

١٦ — أنور الجندى : التربية وبناء الأجيال ، فى ضوء الإسلام — رقم (١٦) من (الموسوعة الإسلامية العربية) — الطبعة الأولى — دار الكتاب اللبنانى — بيروت — ١٩٧٥ .

١٧ — ج . ل . فريمان : « علم النفس الفسيولوجى » — ترجمة الدكتور صبرى جرجس — الفصل الثانى عشر من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية — التأليف بإشراف : ج . ب . جيلفورد — والترجمة بإشراف

الدكتور يوسف مراد — المجلد الأول — الميادين النظرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥ .

١٨ — جان بياجيه : ميلاد الذكاء عند الطفل — ترجمه دكتور محمود قاسم — راجعه دكتور محمد محمد القصاص — مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

١٩ — جورج كاونتس : التعليم فى الاتحاد السوفيتى — ترجمة محمد بدران — مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

٣٠ — الدكتور حسين فوزى النجار : الإسلام والسياسة ، بحث فى الأصول النظرية السياسية ، ونظام الحكم فى الإسلام — مطبوعات الشعب — ١٩٧٧ .

٢١ — خليل طاهر : الأديان والإنسان ، منذ مهبط آدم ، حتى : اليهودية — المسيحية — الإسلام — قدم له وراجعه : فضيلة الإمام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود — دار الفكر والفن — ١٩٧٦ .

٢٢ — ديل كارنيجى : دع القلق ، وابدأ الحياة — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الخامسة — مؤسسة الخانجى بمصر (بدون تاريخ) .

٢٣ — دكتورة رمزية الغريب : التعلم ، دراسة نفسية تفسيرية توجيهية — الطبعة الثالثة — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٧ .

٢٤ — سعد جمعة : الله أو الدمار — الطبعة الثالثة — المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

٢٥ — سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن — دار الشروق (بدون تاريخ) .

٢٦ — سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢ .

٢٧ — سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الرابع (الأجزاء : ١٢ — ١٨) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م.

٢٨ — سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الخامس (الأجزاء ١٩ — ٢٥) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م.

٢٩ — سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد السادس (الأجزاء ٢٦ — ٣٠) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م.

٣٠ — سيد قطب : معالم فى الطريق — ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م (بدون ناشر).

٣١ — سيد قطب : نحو مجتمع إسلامى — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م.

٣٢ — دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ، والفكر الفرويدى ، أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سجمند فرويد — الطبعة الأولى — عالم الكتب — ١٩٧٠.

٣٣ — الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : القرآن وقضايا الإنسان — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٧٢.

٣٤ — عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٥.

٣٥ — عباس محمود العقاد : الإنسان ، فى القرآن الكريم — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٧٣.

٣٦ — عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية — الطبعة الأولى (المؤتمر الإسلامى) — دار القلم (بدون تاريخ).

٣٧ — عباس محمود العقاد : الثقافة العربية ، أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — رقم (١) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم ومكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ).

٣٨ — عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الإسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ .
٣٩ — عباس محمود العقاد : الله — مطابع الأهرام التجارية — ١٩٧٢ .
٤٠ — عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٥٧ .
٤١ — عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، فى التاريخ ، وكشوف العصر الحديث — رقم (٢٠٢) من (كتاب الهلال) — يناير ١٩٦٨ .
٤٢ — عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .
٤٣ — عباس محمود العقاد : عبقرية خالد — دار الهلال (بدون تاريخ) .
٤٤ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد — دار الكتب الحديثة — القاهرة — ١٩٦٦ .
٤٥ — عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ .
٤٦ — الدكتور عبد الحافظ محمد حلمى : الوراثة — رقم (٧٩) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — ١٥ فبراير ١٩٦٣ .
٤٧ — الإمام الأكبر ، دكتور عبد الحليم محمود : فى رحاب الكون ، مع الأنبياء والرسل — العدد (١٢٨) من (كتاب اليوم) — رمضان ١٣٩٧ — ١٥ أغسطس ١٩٧٧ .
٤٨ — دكتور عبد الحميد أحمد أمين : الطاقة الذرية ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها - رقم (٦) من (الألف كتاب) - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦ .
٤٩ — عبد الرحمن بدوى : الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٤٧ .
٥٠ — دكتور عبد الغنى عبود : الإنسان فى الإسلام ، والإنسان

المعاصر — الكتاب الرابع من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٥١ — دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٥٢ — دكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة فى الإسلام » — المقولة الثانية من : فى التربية المعاصرة — الطبعة الأولى - دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

٥٣ — الدكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة فى الإسلام » - تعليم الجماهير — مجلة متخصصة ، تصدر عن الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار — السنة الرابعة — العدد الثامن — يناير ١٩٧٧ .

٥٤ — دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة - الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) - الطبعة الأولى — دار الفكر العربى - ١٩٧٦ .

٥٥ — دكتور عبد الغنى عبود : الله والإنسان المعاصر - الكتاب الثانى من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - ١٩٧٧ .

٥٦ — دكتور عبد الغنى عبود : اليوم الآخر والحياة المعاصرة — الكتاب الخامس من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى - دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٥٧ — دكتور عبد الغنى عبود : فى التربية الإسلامية - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - ١٩٧٧ .

٥٨ — عبد الكريم الخطيب : الله، ذاتا وموضوعا، قضية الألوهية.. بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٥٩ — عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان ، قضية الألوهية ... بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٦٠ — عبد الكريم الخطيب : اليهود فى القرآن — الطبعة الأولى — دار الشروق — ١٩٧٤ .

٦١ — الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة — رقم (٦٢) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول يونية ١٩٦٢ .

٦٢ — الدكتور على عبد الواحد وافى : اليهودية واليهود ، بحث فى ديانة اليهود وتاريخهم ، ونظامهم الاجتماعى والاقتصادى — مكتبة غريب (بدون تاريخ) .

٦٣ — عمر محمد التومى الشيبانى : فلسفة التربية الإسلامية — الطبعة الأولى — الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان — طرابلس — ١٩٧٥ .

٦٤ — دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة إلى الشيخوخة — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ .

٦٥ — قرآن كريم .

٦٦ — كتاب البراهين العقلية والعلمية ، فى صحة الديانة المسيحية — تأليف وجمع القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين — ترجمة حبيب أفندى سعيد — الطبعة الثانية — مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر — ١٩٢٥ .

٦٧ — الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية (تبحث

الأدوار التى مرت بها عقائد النصارى ، وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة ، وفرقهم) — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢م .

٦٨ — محمد اسماعيل ابراهيم : قصص الأنبياء والرسل ، كما جاءت فى القرآن الكريم ، ووردت فى كلام المفسرين ، وأخبار المؤرخين — الطبعة الأولى — دار الفكر المصرى — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

٦٩ — محمد الغزالى : خلق المسلم — الطبعة التاسعة — مطابع قطر الوطنية — ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .

٧٠ — دكتور محمد جلال شرف ، ودكتور عبد الرحمن محمد عيسوى : سيكولوجية الحياة الروحية ، فى المسيحية والإسلام — رقم (٣) من (كتب علم النفس) — منشأة المعارف بالاسكندرية — ١٩٧٢ .

٧١ — محمد شديد : منهج القرآن فى التربية — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز (بدون تاريخ) .

٧٢ — محمد صبيح : المعتدون اليهود ، من أيام (موسى) إلى أيام (ديان) — مطبعة دار العالم العربى — ١٩٦٨ .

٧٣ — الأستاذ الإمام ، الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد — تعليق السيد الإمام محمد رشيد رضا — الطبعة الثامنة عشرة — مكتبة القاهرة — ١٣٨٥هـ — ١٩٦٥ م .

٧٤ — الدكتور محمد عزيز الحبابى : الشخصانية الإسلامية — من (مكتبة الدراسات الفلسفية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩ .

٧٥ — الدكتور محمد فاضل الجمالى : تربية الإنسان الجديد (محاضرات فى مبادئ التربية ، ألقيت فى الجامعة التونسية) — الشركة التونسية للتوزيع — ١٩٦٧ .

٧٦ — محمد قطب : قبسات من الرسول — الطبعة الثانية — دار الشروق (بدون تاريخ) .

٧٧ — فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ، معجزات الرسول ، إعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الإسلام — إعداد وتقديم أحمد فراج — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٩٧٥ .

٧٨ — محمد مجدى مرجان : الله واحد ، أم ثالوث — دار النهضة العربية (بدون تاريخ) .

٧٩ — الدكتور مصطفى الرافعى : الإسلام ومشكلات العصر — الطبعة الأولى — دار الكتاب اللبنانى — بيروت — ١٩٧٢ .

٨٠ — الدكتور مصطفى السباعى : اشتراكية الإسلام — دار ومطابع الشعب — ١٩٦٢ .

٨١ — مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصرى للقرآن — الطبعة الثالثة — دار الشروق — بيروت — ١٩٧٣ .

٨٢ — مصطفى محمود : رأيت الله — دار المعارف بمصر — ١٩٧٦ .

٨٣ — مصطفى محمود : لغز الحياة — الطبعة الخامسة — دار العودة — بيروت — ١٩٧٤ .

٨٤ — مصطفى محمود : من أسرار القرآن — العدد (١١٥) من (كتاب اليوم) — مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة — سبتمبر ١٩٧٦ .

٨٥ — مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام (دراسة مقارنة) — الطبعة الأولى — مكتبة الخانجى بمصر — ١٣٩٢هـ — ١٩٧٣ م .

٨٦ — وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل علمى إلى الإيمان

— ترجمة ظفر الإسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين
— الطبعة الخامسة — المختار الإسلامى — ١٩٧٤ .

٨٧ — الدكتور وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ .

٨٨ — دكتور وهيب إبراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة — الطبعة الأولى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٥٨ .

٨٩ — ويلارد أولسون : تطور نمو الأطفال — ترجمة الدكتور إبراهيم حافظ وآخرين — مراجعة وتقديم الدكتور عبد العزيز القوصى — عالم الكتب — ١٩٦٢ .

ثانياً ـ المراجع الأجنبية :

1 — AFANASYEV, A. : Marxist Philosophy, A Popular Outline; Third Edition, Progress Publishers, Moscow, 1968.

2 — ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur-an, Text, Translation and Commentary, Volume Two; Hafner Pub Company, New-York, U.S.A., 1946.

3 — AL - QUADIREE, ATAWOOLLAH ALI SARFARAZ KHAN JOOMMAL : The Path of Islam, The World Federation o Islamic Missions, South African Branch (Without Date).

4 — CHKHIRVADZE, V.M. (Edited by) : The Soviet Form of Popular Government; Progress Publishers, Moscow, 1972.

5 — CURTIS, JACK H. : Social Psychology; McGraw-Hill Book Company, Inc., New-York, 1960.

6 — DAVIS, ROBERT A. : Psychology of Learning; McGraw-Hill Book Company, Inc , New-York, 1935.

7 — HITLER, ADOLF : My Struggle, Number II; The Paternester Library, 1937.

8 — KHALIFA, RASHAD : Miracle of the Quran, Singnificance of the Mysterious Alfabets; Islamic Production International Inc., St. Louis, Missouri, U.S A., 1973.

9 — SAGAN, CARL and LEONARD, JONATHAN NORTON and the Editors of LIFE : Planets; LIFE Science Library, Time - Life International (Nederlaud) N.V., 1967.

للمؤلف

أولا : من كتب التربية

١ ــ **فى التربيــة المقــارنة** ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٤ (مع الدكتــورة نازلى صــالح) .

٢ ــ **الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربيــة المقــارنة** ــ دار الفكر العربى ــ الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٨ .

٣ ــ **نحو فلسفة عربية للتربية** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٦ (مع الدكتور عبد الغنى الثورى) .

٤ ــ **فى التربية الاسلامية** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٧ .

٥ ــ **فى التربية المعاصرة** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٧ (مع الدكتور ابراهيم عصمت مطاوع) .

٦ ــ **دراسة مقارنة لتاريخ التربية** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٨ .

٧ ــ **ادارة التربية ، أصــولها وتطبيقاتها** ــ دار الفكر العــربى (تحت الطبع) .

٨ ــ **البحث فى التربية** ــ دار الفكر العربى (تحت الطبع) .

ثانيا : من كتب سلسلة (الاسلام وتحديات العصر)

(وتصدرها : دار الفكر العربى)

١ ــ **العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعــاصرة** ــ مايو ١٩٧٦ .

٢ ــ **الله ، والانسان المعــاصر** ــ فبراير ١٩٧٧ .

٣ ــ **الاســلام والكون** ــ مايو ١٩٧٧ .

٤ ــ **الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر** ــ فبراير ١٩٧٨ .

٥ ــ **اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة** ــ يونية ١٩٧٨ .

٦ ــ **أنبياء الله والحياة المعاصرة** ــ يناير ١٩٧٩ .

الكتاب التالى من السلسلة : **قضية الحــرية وقضايا أخــرى** يصــدر فى منتصف هــذا العام باذن الله .

فى هـذا الكتاب

فهم بشر .. ولكنهم فاضـلون ، أولو عـزم .

ولو أننا درسنا حيـاة الناس ـ كل الناس ـ فى حياتنا المعاصرة ، لوجدناهم ـ نفسيا ـ على شاكلة نبى من هؤلاء الأنبياء ، لا ينقصهم الا هذا الفضل ، وذلك العـزم .

والفضـل لم يأت ـ فى حياة الأنبياء ـ الا من السـير فى طريق الله ، والاحساس بالعبودية له ، والاعتزاز بهـذه العبودية ـ ولم يأت من مال ، أو من منصب أو جاه ، أو من شرف أصـل ومحتـد :

والعـزم هو الآخر ، لم يأت من قوة أو من جاه أو سلطان ، أو حسب ونسب ، وانما هو توفر لدى هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، من اعتمادهم على الله ، وتوكلهم عليه ، وسيرهم فى طريقه ، فوفر لهم كل أسباب القوة .

ومن ثم كان بمقـدور كل انسان ، يعيش فى عالمنـا المعـاصر ، أن يكون نبيا ، على نحـو من الأنحـاء ، لأنه ، ان لم يستطع أن يكون نبيا ، فسيتحول الى شيطان ، وهو لا يدرى .

وهـل يستطيع الانســان ـ قديمـا كان أو معاصرا ـ أن يعيش بين بين ؟ !

انه ـ بحكم تكوينه ـ اما عبد لله ، واما عبد للشيطان .

الكتاب التـالى من السلسلة :

قضـية الحـرية ... وقضايا أخـرى

يصدر فى مطلع العـام القـادم ان شاء الله

